

أزمة أحسلاق



حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الثانية
١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

دار الجابية

لندن - بريطانيا

DAR AL-JABIA

P.O.Box: 508 London UB5 9GF

daraljabia@hotmail.com

أزمة أخلاق

تأليف
محمد سرور زين العابدين

دار الجليلية

لندن - بريطانيا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى:

﴿فَلِذَلِكَ فَادَعُ وَاَسْتَقِمْ كَمَا اُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ
اَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا اَنْزَلَ اللهُ مِنْ كِتَابٍ
وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا اَعْمَلُنَا
وَلَكُمْ اَعْمَلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللهُ يَجْمَعُ
بَيْنَنَا وَاِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾.

[الشورى: ١٥]

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوته واهتدى بهديه إلى يوم الدين.

أما بعد:

فيشتمل هذا الكتاب على المحاضرات الثلاث التالية:

١ - العدل والإنصاف.

٢ - الإرهاب داخل الصف الإسلامي.

٣ - أزمة أخلاق.

وكنت قد أُلقيت هذه المحاضرات في نوادٍ إسلامية مختلفة بأوروبا، وأعدت صياغتها بعد أن أفدْتُ من أسئلة وملحوظات الذين شهدوا هذه المحاضرات، ثم نشرتها على شكل حلقات في مجلة السنة، وأسَميت هذا الكتاب: [أزمة أخلاق]، وذلك لأن كل من التزم بالأخلاق الإسلامية الرفيعة، وتأدب بأدب النبوة لا بد وأن يتجنب الإرهاب بكافة صورته وأشكاله، كما أنه لا بد وأن يكون عادلاً منصفاً في أحكامه وأقواله وأفعاله، وكل من انحطت أخلاقه فغير مستغرب منه ظلمه لإخوانه وأعدائه، وفساده في الأرض، ومشيه بين الناس بالنميمة.

حاولت في هذا الكتاب إبراز أهم مشكلات الدعاة والجماعات الإسلامية،

ووضع الحلول المناسبة لها، فعندما نتحدث عن الحوار الهادئ البناء سبيلاً وحيداً إلى وحدة الصف، ورأب الصدع، وإصلاح ذات البين، تنصرف جهود كثير من الباحثين إلى القضايا الشكلية في الحوار مثل: حسن الاستماع، وترك المتحدث يقول كل ما يريد دون مقاطعة، والحرص على تقرير النقاط التي يسهل الاتفاق عليها لتكون أرضية مشتركة بين المتحاورين، وتأجيل القضايا الشائكة إلى الجلسات الأخيرة، وغير ذلك.

وأنا لا أقلل من أهمية القضايا الشكلية، ولكنني عرضت في كتابي هذا أموراً تسبقها في الأهمية، وعليها ينبنى نجاح الحوار أو فشله، فالظالم المراوغ لن ينجح في حوار مهمل من دهاء وخبرة، لأن أفعاله القبيحة مكشوفة عند الذين يحاورونه، وهم يتوجسون خيفة من كل كلمة يقولها، ومن كل طلب يطلبه منهم، لأنهم يخشون أن يكون حوارهم خدعة يهدف من ورائها إلى الحصول على معلومات خاصة يستخدمها فيما بعد عند الحاجة إليها.

والداعية الذي يأمر الناس بالمعروف وينهاهم عن المنكر لابد وأن يكون قدوة صالحة، فإذا كانت أقواله مخالفة لأفعاله لن يتبعه أحد، وستكون دعوته مادة سيئة يستغلها أعداء الإسلام أبشع استغلال.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ

تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾﴾ [الصف]

وإنه لا أمل للنهوض من هذا الواقع إلا إذا تغيرت نفوسنا، وصلحت أخلاقنا.

صلاح أمرك للأخلاق مرجعه فقوّم النفس بالأخلاق تستقم

أرجو أن يستفيد القراء من هذا الكتاب، وأن تحتل الأخلاق مكانتها المناسبة في
مناهج الدعوة والدعاة، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

لندن: ١٥/٤/١٤٢٠ هجرية

محمد سرور زين العابدين

الباب الأول

العدل

ويشمل الفصول التالية:

الفصل الأول: العدل في مدلوله الشرعي.

الفصل الثاني: درس لا ينسى.

الفصل الثالث: سؤال وجوابه.

الفصل الأول

العدل في مدلوله الشرعي

- العدل لغة و شرعاً
- شواهد من القرآن الكريم
- شواهد من السنة
- عدل الإسلام مع الكفار
- شواهد من التاريخ على عدل الإسلام مع الكفار
- عدل أئمة السلف
- عدل الدعاة فيما بينهم

العدل

العدل هو: القسط والإنصاف، والاستقامة وعدم الجور، والقصد في الأمور، وما قام في النفوس أنه مستقيم، وهو -العدل- أيضاً نقيض الهوى، قال تعالى:

﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىَٰ أَنْ تَعْدِلُوا﴾ [النساء: ١٣٥].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية:

(وأمر الناس تستقيم في الدنيا مع العدل الذي فيه الاشتراك في أنواع الإثم أكثر مما تستقيم مع الظلم في الحقوق وإن لم تشترك في إثم، ولهذا قيل: إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة؛ ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة. ويقال: الدنيا تدوم مع العدل والكفر، ولا تدوم مع الظلم والإسلام، وقد قال النبي ﷺ: «ليس ذنب أسرع عقوبة من البغي وقطيعة الرحم»، فالباغي يصرع في الدنيا وإن كان مغفوراً له مرحوماً في الآخرة، وذلك أن العدل نظام كل شيء؛ فإذا أقيم أمر الدنيا بعدل قامت وإن لم يكن لصاحبها في الآخرة من خلاق، ومتى لم تقم بعدل لم تقم وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يجزى به في الآخرة)^(١).

وقال أيضاً:

(والعدل مما اتفق أهل الأرض على مدحه ومحبته والثناء على أهله

(١) فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: (١٤٦/٢٨).

ومحبتهم، والظلم مما اتفقوا على بغضه وذمه وتقبيحه، وذم أهله وبغضهم^(١).

قال القاضي أبو بكر بن العربي: (العدل بين العبد وربّه بامثال أوامره واجتناب مناهيه، وبين العبد وبين نفسه بمزيد الطاعات وتوقي الشبهات والشهوات، وبين العبد وبين غيره بالإنصاف)^(٢).

وقال الراغب: (العدل ضربان: مطلق يقتضي العقل حسنه، ولا يكون في شيء من الأزمنة منسوخاً، ولا يوصف بالاعتداء بوجه، نحو: أن تحسن لمن أحسن إليك، وتكف الأذى عن من كف أذاه عنك.

وعدل يعرف بالشرع، ويمكن أن يدخله النسخ، ويوصف بالاعتداء مقابلة كالتقصاص وأرش الجنابات وأخذ مال المرتد، ولذا قال تعالى: ﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ الآية، وهذا النحو هو المعني بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ فإن العدل هو المساواة في المكافأة في خير أو شر، والإحسان مقابلة الخير بأكثر منه، والشر بالترك أو بأقل منه)^(٣).

شواهد من القرآن الكريم:

أمر الله بالعدل والإحسان، ونهى عن الفحشاء والمنكر والبغي، قال تعالى:

(١) منهاج السنة النبوية، لشيخ الإسلام، تحقيق محمد رشاد سالم: (٥/١٢٧).

(٢) فتح الباري، كتاب الأدب، باب قول الله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ الآية.

(٣) المصدر السابق.

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ
وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٩٠].

روى ابن جرير عن ابن مسعود: (إن أجمع آية في القرآن لخير وشر، هذه الآية).

وقال سعيد عن قتادة في تفسيره لهذه الآية:

(ليس من خلق حسن كان أهل الجاهلية يعملون به ويستحسنونه إلا أمر الله به، وليس من خلق سيء كانوا يعايرونه بينهم إلا نهى الله عنه وقدم فيه. وإنما نهى عن سفاسف الأخلاق ومذامها).

قلت [ابن كثير]:

ولهذا جاء في الحديث: «إن الله يحب معالي الأخلاق ويكره سفاسفها»^(١).

ومن العدل الصدق والإنصاف في القول كله، قال تعالى:

﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّانِعُكُمْ
بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

وقال: ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ

أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ... ﴾ [النساء: ١٣٥].

(١) تفسير القرآن العظيم، للحافظ ابن كثير، مطبعة الشعب، القاهرة.

ومن لطيف ما قيل في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾: (وهذه اللفظة من الأمور العجيبة في عدوبة لفظها وقلة حروفها وجمعها لأمر كثيرة من الإقرار والشهادة والوصايا والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والفتاوى والأحكام والمذاهب)^(١).

ومن الأحاديث الواردة في هذا المعنى:

- عن عبادة بن الصامت، قال: «بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في المنشط والمكروه، وأن لا ننازع الأمر أهله.. إلى أن قال: وأن نقوم أو نقول بالحق حيثما كنا لا نخاف في الله لومة لائم»^(٢).

وزاد النسائي: «وعلى أن نقول بالعدل أين كنا»^(٣).

- وقال ﷺ: «اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق، أحيني ما علمت الحياة خيراً لي.. إلى قوله: «وأسألك كلمة الحق في الرضا والغضب»، وفي رواية أخرى: «وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وكلمة الإخلاص في الرضا والغضب»^(٤).

(١) تفسير القاسمي، ص: (٢٥٦٩)، المجلد السادس، دار إحياء الكتب العربية.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الأحكام، باب كيف يبايع الإمام الناس.

(٣) صحيح سنن النسائي، كتاب البيعة، باب البيعة على القول بالعدل، رقم الحديث: (٣٨٧٢).

(٤) صحيح سنن النسائي، الجزء الأول، باب الدعاء بعد الذكر، رقم الحديث: (١٢٣٧)،

والحديث: (١٢٣٨)، الناشر: مكتبة التربية العربي لدول الخليج.

تشريعاً لا يجوز لأحد مخالفته فهو كافر ﴿ فأولئك هم الكافرون ﴾ ، وهو ظالم لأنه لم ينصف الظالم من المظلوم ﴿ فأولئك هم الظالمون ﴾ ، وهو فاسق لأنه خارج عن طاعة ربه، منقاد لشهواته وأهوائه ﴿ فأولئك هم الفاسقون ﴾ .

شواهد من السنة:

تجسدت معاني العدل كلها بشخصية رسول الله ﷺ ، فلقد كان يعطي كل صاحب حق حقه لا يحابي في ذلك قريباً ولا عزيزاً، وكان ﷺ لا يقبل الشفاعة في حد من حدود الله.

- عن عائشة رضي الله عنها أن قريشاً أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت فقالوا: من يكلم فيها رسول الله ﷺ؟ فقالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد، حبُّ^(١) رسول الله ﷺ. فكلمه أسامة فقال رسول الله ﷺ: «أتشفع في حد من حدود الله تعالى؟» ثم قام فاختمت ثم قال: «إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وإيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»^(٢).

(١) حب: محبوبه ﷺ.

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحدود، باب كراهية الشفاعة في الحد إذا رفع إلى السلطان، وانظر رياض الصالحين للنووي، كتاب الأمور، باب تحريم الشفاعة في الحدود.

من فقه الحديث:

١ - كان لقريش مكانة مرموقة بين العرب في جاهليتهم، وإقامة الحد على امرأة منهم لأنها سرقت منقصة لهم بين القبائل، ولهذا اختاروا أسامة بن زيد ليشفع للمرأة المخزومية عند رسول الله ﷺ.

٢ - غضب رسول الله ﷺ، وقال لأسامة: «أتشفع في حد من حدود الله»، وفي رواية: «فتلون وجه رسول الله ﷺ» أي: تغير غيظاً، ورسول الله ﷺ لا يغضب إلا لله جل وعلا، وكان من عاداته ﷺ دعوة الناس إلى مسجده عندما يحدث حدث مهم ثم يقف خطيباً بينهم، ويبين لهم الحكم الشرعي في هذا الحدث.

٣ - كانت خطبة رسول الله ﷺ قصيرة، ولكنها تضمنت أحكاماً في غاية الأهمية:

منها: الاعتبار بأحوال من مضى من الأمم ولاسيما الذين خالفوا أمر الشرع، وكيف أهلكتهم الله عندما أقاموا الحدود على الضعفاء وتركوا الشرفاء.

ومنها: أن المسلمين سواسية في الحدود وغيرها، قال شراح الحديث: كانت فاطمة عليها السلام عند أبيها ﷺ في أعظم المنازل، ولو أنها سرقت لقطع محمد ﷺ يدها، وفي هذا دليل على جواز ضرب المثل بالكبير القدر للمبالغة في الزجر عن الفعل ومراتب ذلك مختلفة.

٤ - وفي رواية: فقال أسامة: استغفر لي يا رسول الله. قال: ثم أمر بتلك

المرأة فقطعت يدها^(١).

فهمت قریش بخاصة والصحابه بعامة هذا الدرر التربوي من نبهم ﷺ، فالمرأة قطعت يدها، وقریش علمت أنها في الأحكام الشرعية كغيرها من القبائل، بل كغيرها من أرقاء المسلمين، وأسامة لن يشفع بعد الآن بحد من حدود الله، ويا ليت المرابين من العلماء يعلمون طلابهم أهمية العدل والإنصاف، ويحذرونهم من الهوى والظلم والجور، ويكونون في أعمالهم وأقوالهم نماذج يحسن التأسي بها.

مما يجدر ذكره أن عدل الإسلام شمل الحيوانات، فلا يجوز ظلمها ولا منع الطعام والشراب عنها.

- عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال:

«عذبت امرأة في هرة: حبستها حتى ماتت فدخلت فيها النار لا هي أطعمتها وسقتها إذ هي حبستها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض»^(٢).

وفي أحاديث أخرى أشار ﷺ إلى أجر المقسطين عند الله تعالى:

- عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إنما الإمام جنة، يقاتل من ورائه ويتقى به، فإن أمر بتقوى الله عز وجل وعدل، كان له أجر، وإن يأمر بغيره

(١) انظر رياض الصالحين وفتح الباري.

(٢) متفق عليه.

كان عليه منه»^(١).

- وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المقسطين عند الله على منابر من نور، عن يمين الرحمن عز وجل، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا»^(٢).

عدل الإسلام مع الكفار:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَٰى ءَلَّا تَعْدِلُوا ءَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (وهذه الآية نزلت بسبب بغضهم للكفار، وهو بغض مأمور به، فإذا كان البغض الذي أمر الله به قد نهى صاحبه أن يظلم من أبغضه، فكيف في بغض مسلم بتأويل وشبهة أو بهوى نفس؟ فهو أحق أن لا يظلم، بل يعدل عليه)^(٣).

وقال القرطبي: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ﴾ الآية، على ترك العدل وإيثار العدوان على الحق. وفي هذا دليل على نفوذ حكم العدو على

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة.

(٣) منهاج السنة النبوية، لشيخ الإسلام ابن تيمية، (٥/١٢٧)، تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم.

عدوه في الله تعالى ونفوذ شهادته عليه: لأنه أمر بالعدل وإن أبغضه، ولو كان حكمه عليه وشهادته لا تجوز فيه مع البغض له لما كان لأمره بالعدل فيه وجه. ودلت الآية على أن كفر الكافر لا يمنع من العدل عليه^(١).

شواهد من التاريخ على عدل الإسلام مع الكفار:

حقوق أهل الذمة - العامة والخاصة - مصانة محترمة لا يجوز المساس بها ما داموا ملتزمين بالعهود التي عاهدوا المسلمين عليها، ويستطيع المظلوم منهم رفع ظلامته للقاضي الذي لا يتردد في استدعاء الظالم ولو كان خليفة المسلمين أو نائباً من نوابه، ويقف الخصمان أمام القاضي على قدم المساواة، كل يدافع عن نفسه دون خوف ولا قهر واستبداد، وعندما يفرغ القاضي من إجراءات المحاكمة يصدر الحكم الذي ينصف الظالم من المظلوم، وإذا كان الخليفة هو المدان فما عليه إلا تنفيذ حكم القاضي. قال رسول الله ﷺ: «ألا من ظلم معاهداً أو انتقصه، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس، فأنا حجيجه يوم القيامة»^(٢).

ومن ذا الذي يرضى بمحاجة رسول الله ﷺ يوم القيامة؟ ولطالما حكم القضاة للنصارى واليهود، وأعادوا لهم حقهم المغتصب، ومن بين الشواهد الدالة على عدل المسلمين وإنصافهم للذميين نذكر ما يلي:

(١) تفسير القرطبي: (١٠٩/٥) دار الكتاب العربي.

(٢) صحيح سنن أبي داود، كتاب الخراج والإمارة والفيء، باب تعشير أهل الذمة، إذا اختلفوا بالتجارات.

١ - كتب عمر بن عبد العزيز رحمه الله إلى عدي بن أرطأة - واليه على البصرة - يقول:

(أما بعد، فإن الله سبحانه إنما أمر أن تؤخذ الجزية ممن رغب عن الإسلام، واختار الكفر عتاً وخسراناً مبيناً، فضع الجزية على من أطاق حملها، وخل بينهم وبين عمارة الأرض، فإن في ذلك صلاحاً لمعاشر المسلمين وقوة على عدوهم، ثم انظر من قبلك من أهل الذمة، قد كبرت سنه وضعفت قوته، وولت عنه المكاسب، فأجر عليه من بيت مال المسلمين ما يصلحه فلو أن رجلاً من المسلمين كان له مملوك كبرت سنه، وضعفت قوته، وولت عنه المكاسب كان من الحق عليه أن يقوته حتى يفرق بينهما موت أو عتق. وذلك أنه بلغني أن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه مر بشيخ من أهل الذمة يسأل على أبواب الناس فقال: ما أنصفتك، أن كنا أخذنا منك الجزية في شببتك ثم ضيعناك في كبرك قال: ثم أجرى عليه من بيت المال ما يصلحه)^(١).

٢ - عزم الوليد بن عبد الملك على توسعة المكان الذي اتخذهُ أبو عبيدة مسجداً، [في دمشق] وذلك لأن المسجد القديم لم يعد يتسع للمسلمين الذين تضاعف عددهم مرات ومرات، ومن جهة أخرى فقد كان بعض المسلمين يتأذى بسماع قراءة النصارى للإنجيل، ورفع أصواتهم في صلواتهم في كنيستهم

(١) أحكام أهل الذمة، لابن القيم، تحقيق الدكتور صبحي الصالح، (١/٣٧)، دار العلم للملايين.

المجاورة للمسجد.

طلب الوليد النصارى، وعرض عليهم إقطاعات كثيرة مقابل التخلي عن هذه الكنيسة، فأبوا ذلك أشد الإباء، وجلس الخليفة أياماً يفكر في هذه القضية لأن مسألة إخراجهم بالقوة ليست واردة، وجاءه من يرشده إلى الحل الأمثل الذي يلزم الطرفين، فطلب الوليد النصارى وقال لهم: اتنوني بعهودكم التي بأيديكم من زمن الصحابة، فأتوا بها فقرئت بحضرة الوليد، فإذا كنيسة تو ما لم تدخل في العهد، وكانت فيما يقال أكبر من كنيسة مريحنا، فقال الوليد: أنا أهدمها وأجعلها مسجداً، فقالوا: بل يتركها أمير المؤمنين وما ذكر من الكنائس^(١) ونحن نرضى ونطيب له نفساً ببقية هذه الكنيسة، فأقرهم على تلك الكنائس، وأخذ منهم بقية هذه الكنيسة^(٢).

٣ - يقول [أرنولد] وهو يتحدث عن المذاهب الدينية بين الطوائف المسيحية: (ولكن مبادئ التسامح الإسلامي حرمت مثل هذه الأعمال التي تنطوي على الظلم، بل كان المسلمون على خلاف غيرهم إذ يظهر لنا أنهم لم

(١) من أهم هذه الكنائس التي لم تدخل في العهد: كنيسة مريم، وكنيسة المصلبة، وكنيسة تل الجبين، وكنيسة حميد بن درة.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير: (١٤٢/٩)، ومن الجدير بالذكر أن ابن كثير أورد أكثر من رواية، لا تخرج عن عودة الطرفين إلى عهود النصارى مع الصحابة الذين فتحوا دمشق، واحتكامهم إلى هذه العهود.

يألوا جهداً في أن يعاملوا كل رعاياهم من المسيحيين بالعدل والقسطاس مثال ذلك: أنه بعد فتح مصر استغل اليعاقبة فرصة إقصاء السلطات البيزنطية ليسلبوا الأرثوذكس كنائسهم، ولكن المسلمين أعادوها أخيراً إلى أصحابها الشرعيين بعد أن دلت الأرثوذكس على ملكهم لها).

ويقول غوستاف لوبون: (إن الأمم لم تعرف فاتحين راحمين متسامحين مثل العرب ولا ديناً سمحاً مثل دينهم)^(١).

٤ - وكتب شيخ الإسلام ابن تيمية رسالة لسراجون ملك قبرص تقدم فيما يلي مقطعاً منها:

(وقد عرف النصارى كلهم أنني لما خاطبت التتار في إطلاق الأسرى، وأطلقهم غازان وقطلو شاه، وخاطبت مولاي فيهم فسمح بإطلاق المسلمين قال لي: لكن معنا نصارى أخذناهم من القدس، فهؤلاء لا يطلقون، قلت له: بل جميع من معك من اليهود والنصارى الذين هم أهل ذمتنا، فإننا نفكهم ولا ندع أسيراً إلا من أهل الملة ولا من أهل الذمة، وأطلقنا من النصارى من شاء الله، فهذا عملنا وإحساننا والجزاء على الله.

وكذلك السبي الذي بين أيدينا من النصارى يعلم كل أحد إحساننا ورحمتنا

(١) من روائع حضارتنا، الدكتور مصطفى السباعي: (٨٦، ٨٨).

ورأفتنا بهم كما أوصانا خاتم النبيين^(١).

عدل أئمة السلف

كان جمهور أئمة السلف - رحمهم الله - يُنزِلُون الناس منازلهم، فلا يظلمون أقرانهم بسبب اختلاف الاجتهادات، ولا يحابون أقرب الناس إليهم فيعطونهم ما لا يستحقونه. ولقد كانت هذه حالهم مع المبتدعين، أو حتى مع الكفار امتثالاً لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا...﴾، ونعرض فيما يلي نماذج من عدلهم:

١ - عن عاصم بن كليب، عن أبيه قال: انتهينا إلى علي رضي الله عنه، فذكر عائشة، فقال: خليفة رسول الله ﷺ.

قال الذهبي: وهذا يقوله أمير المؤمنين في حق عائشة مع ما وقع بينهما، فرضي الله عنهما. ولا ريب أن عائشة نَدِمَتْ ندامَةً كَلِيَّةً على مسيرها إلى البصرة وحضورها يوم الجمل، وما ظنت أن الأمر يبلغ ما بلغ. فعن عمارة بن عمير، عن سمع عائشة إذا قرأت: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب: ٣٣] بكت حتى تبل خمارها.

(١) حياة شيخ الإسلام ابن تيمية، للشيخ محمد بهجة البيطار، ص: (١٥) [عن الرسالة القبرصية لابن تيمية].

وعن عمرو بن غالب: أن رجلاً نال من عائشة عند عمار، فقال: أُعْرِبْ مقبوحاً، أتؤذي حبيبة رسول الله ﷺ^(١).

٢ - وعن عبد الرحمن بن شُماسة، قال: دخلت على عائشة، فقالت: مما أنت؟ قلت: من أهل مصر. قالت: كيف وجدتم ابن حُديج في غزاتكم هذه؟ قلت: خيرٌ أمير، ما يقف لرجل منا فرسٌ ولا بعيرٌ إلا أبدل مكانه بعيراً، ولا غلام إلا أبدل مكانه غلاماً. قالت: إنه لا يمنعي قتلُه أخي أن أحدثكم ما سمعت من رسول الله ﷺ، إني سمعته يقول: «اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به، ومن شق عليهم فاشقق عليه»^(٢) (٣).

٣ - سئل أحمد بن حنبل عن الشافعي، فقال: (لقد منَّ الله علينا به، لقد كنا تعلمنا كلام القوم، وكتبنا كتبهم، حتى قدم علينا، فلما سمعنا كلامه، علمنا أنه أعلم من غيره، وقد جالسناه الأيام والليالي، فما رأينا منه إلا كل خير، فقيل له: كان يحيى وأبو عبيد لا يرضيانه - يشير إلى التشيع وأنهما نسباهُ إلى ذلك - فقال أحمد بن حنبل: ما ندرني ما يقولان، والله ما رأينا منه إلا خيراً).

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي، مؤسسة الرسالة، (١٧٧/٢).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، رقم: (١٨٢٨)، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل.

(٣) سير أعلام النبلاء، مصدر سابق: (٣٨/٣)، ومعاوية بن حديج له صحبة، وولي إمرة مصر لمعاوية وهو الذي قتل محمد بن أبي بكر الصديق لأنه كان أحد الذين حاصروا عثمان بن عفان، وقيل: كان من بين الذين شاركوا في قتله [عن سير أعلام النبلاء: (٣٧/٣، ٤٨١/٣)].

وللخبر تتمه عند البيهقي، وهي: ثم قال لمن حوله: (اعلموا رحمكم الله تعالى أن الرجل من أهل العلم إذا منحه الله شيئاً من العلم، وحُرِّمَهُ قرناؤه وأشكاله، حسدوه فرموه بما ليس فيه، وبئست الخصلة في أهل العلم).

قال الذهبي: من زعم أن الشافعي يتشيع فهو مُفْتَرٍ، لا يدري ما يقول^(١).

٤ - قال يونس الصَّدْفِيُّ: ما رأيت أعقل من الشافعي، ناظرته يوماً في مسألة، ثم افترقنا، ولقيني، فأخذ بيدي، ثم قال: يا أبا موسى، ألا يستقيم أن نكون إخواناً وإن لم نتفق في مسألة.

قال الذهبي: هذا يدلُّ على كمال عقل هذا الإمام، وفقه نفسه، فما زال النظراء يختلفون^(٢).

(١) سير أعلام النبلاء، مصدر سابق، (٥٨/١٠)، والتتمة في هامش الخبر.

(٢) سير أعلام النبلاء: (١٦/١٠).

عدل الدعاة فيما بينهم

أخي الداعية، ها قد رأيت أن عدل الإسلام قد اتسع للحيوانات، وأن الله جل وعلا قد أدخل امرأة النار بسبب ظلمها لهرة، وشمل عدل الإسلام أيضاً الذين كفروا من أهل الكتاب، وتوعد رسول الله ﷺ من يظلمهم:

«ألا من ظلم معاهداً أو انتقصه، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس، فأنا حجيجه يوم القيامة».

أظن أنه قد آن لنا بعد هذه الرحلة في رحاب العدل أن نتساءل: أما آن للدعاة أن يعدلوا مع إخوانهم الدعاة؟!، وهذا هو بيت القصيد [كما يقولون] في كل ما ذكرناه عن العدل والإنصاف، فكم يشعر أحدنا بالمرارة عندما يرى بعضاً من إخوانه يتخرج من إيذاء الحيوان وظلمه ولا يتخرج من إيذاء وظلم إخوان له؟!.

أخي الداعية: تذكر أن إخوانك الذين تختلف معهم هم في مجموعهم صفوة هذه الأمة، وهم الأمل المرتجى بعد الله سبحانه وتعالى:

- فمنهم من قضى سنِّي عمره يدعو ويعلم ويربي، وقد نفع الله به خلقاً كثيراً تأثروا به واستنوا بسنته، وهو وإياهم كانوا سبباً في هداية الضالين، وتوبة العصاة المفسدين.

- ومنهم من رزقه الله المال، فسخره لنصرة دين الله والإنفاق في مختلف وجوه الخير، وقلة من الرجال يتحكمون بالمال ولا يتحكم المال بهم.

- ومنهم من جاهد لتكون كلمة الله هي العليا، واستعذب الموت في سبيل الله، والجود بالنفس أقصى غاية الجود.

- ومنهم من قال بشموخ واستعلاء: ﴿رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ٣٣]، وعندما ابتلاه الله بالسجن صمد صمود الأبطال، وما وهن ولا استكان، وعندما فرّج الله كربته خرج من سجنه وهو أشد اقتناعاً بدعوته.

- ومنهم من فارق الديار والأهل والخلان فراراً بدينه باحثاً في أرض الله الواسعة عن مكان آمن يعبد فيه ربه، ويلتقط أنفاسه ليكمل مسيرة الجهاد في سبيل الله.

هؤلاء الإخوة لا بد وأن لهم أخطاء ومن ذا الذي يخلو من الذنوب والأخطاء؟ ولا بد أن تجد نفسك مضطراً لتفنيده هذه الأخطاء، وبيان مخالفتها للأحكام الشرعية، فلا بأس مما تفعل، ولكن لا تكتب وأنت في حالة غضب. ولا تتهم إخوانك في نواياهم، وأحسن الظن بهم، ولا تنس فضلهم في العمل الإسلامي، وإياك وظلمهم:

- قال محمد بن سيرين: (ظلم لأخيك أن تذكر منه أسوأ ما تعلم، وتكتم خيره)^(١).

هذا إذا ذكرت أسوأ ما فيه ولم تذكر أحسن ما فيه، فكيف إذا أشعت عنه مقالة

(١) البداية والنهاية: (٩/ ٢٧٥).

السوء دون تمحيص ولا توثيق، وغفلت عن حديث رسول الله ﷺ: «حسب امرئ من الكذب أن يحدث بكل ما سمع».

- وقال سعيد بن المسيب: (ليس من شريف ولا عالم ولا ذي فضل إلا وفيه عيب، ولكن من الناس من لا ينبغي أن تذكر عيوبه، فما كان فضله أكثر من نقصه وهب نقصه لفضله)^(١).

- وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في معرض رده على الرافضة الذين يظلمون أصحاب رسول الله ﷺ ويفترون عليهم: (ومعلوم أنا إذا تكلمنا فيمن هو دون الصحابة، مثل الملوك المختلفين على الملك، والعلماء والمشايخ المختلفين في العلم والدين، وجب أن يكون الكلام بعلم وعدل لا بجهل وظلم؛ فإن العدل واجب لكل أحد على كل أحد في كل حال، والظلم محرم مطلقاً، لا يباح قط بحال)^(٢).

وعندما خالف الدعاة هذه الآداب الشرعية، وكثرت الردود والانتهاكات بينهم، وعرف عامة الناس عيوبهم ونقائصهم المزعومة هانوا في أعينهم، وتجراً الأعداء عليهم، واستغل هذا في ضرب ذاك، وصدق فيهم قول الشاعر:

يا معشر القراء يا ملح البلد ما يصلح الملح إذا الملح فسد

(١) البداية والنهاية: (٩/١٠٠).

(٢) منهاج السنة، لابن تيمية: (٥/١٢٦).

الفصل الثاني

درس كينسي

درس لا ينسى

كنا أربعة نسير في محاذاة نهر، وشغلتنا المناظر الخلافة عن تجاذب أطراف الحديث حتى خُيِّل إلي وكأني أسير وحدي، في هذه اللحظات قطع الدكتور الشيخ محمد أمين المصري رحمه الله جدار الصمت [وكان أحد الأربعة] بسؤال باغت به أحدنا:

- فلان [ذكر اسم أحد الدعاة المشهورين] أليس له حسنات؟!.

- أجاب المسؤول: بلى، له حسنات.

الشيخ: اذكر لي اثنتين منها؟.

وعندما عدد المسؤول اثنتين من هذه الحسنات، قال الشيخ: إذن له حسنات، ثم صمت، وصمتنا لأن المسألة التي أثارها لا تزال غير واضحة عندنا.

وعاد بعد هذا الصمت ليقول بتأثر بالغ:

سألت فلاناً [ذكر اسم داعية معروف عندنا] نفس السؤال فأنكر أن يكون له حسنة واحدة.. ثم عدنا إلى صمتنا، ولم تعد لنا حاجة إلى النهر وجماله الأخاذ.

كان بيننا - الثلاثة - وبين الداعية الذي يسأل عن حسناته خلاف، ومع أننا لم نذكر هذا الخلاف من قبل أمام الشيخ، لكنه لا بد وأن يكون على علم به، فأراد أن ينصحننا بشكل غير مباشر وكان لسان حاله يقول:

تذكروا أن لصاحبكم حسنات، وتذكروا أنه من العاملين لنصرة دين الله، وحوذار أن تكونوا من الذين يبالغون في الحب والكره.

رحم الله الشيخ رحمة واسعة، فلقد كان عالماً جهبذاً، ومربياً قديراً، وداعية مؤثراً، وكان ينأى بنفسه عن الصراعات الشخصية أو الحزبية، ويحرص على إقامة جسور مع مختلف الجماعات والعلماء، ولا يقصر في نصحتهم، وكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ومواقفه في مسجد المرابط - بدمشق - معروفة ومحمودة.

ومما يؤسف له أن الشيخ لم يعط حقه في الساحة الإسلامية، ولعل السبب في هذا الإهمال عدم فناعة الشيخ بتربية الأتباع الذين يجيدون فن التعصب لشييوخهم^(١).

(١) ولد الشيخ عام ١٩١٤ م في مدينة دمشق، وفي عام ١٩٤١ م انتسب لكلية أصول الدين بالأزهر، وتخرج منها بعد أربع سنوات، وعمل مدرساً في ثانويات دمشق، وفي عام ١٩٥١ م عُيِّنَ ملحقاً ثقافياً للسفارة السورية في باكستان، وكانت له جهود طيبة في نشر اللغة العربية خلال الخمس سنوات التي أقامها هناك، وفي عام ١٩٥٦ م سافر إلى بريطانيا للتخضير لرسالة الدكتوراه وحصل عليها في عام ١٩٥٩ م وكان موضوعها [معايير النقد عند المحدثين] ثم التحق بجامعة دمشق في نفس العام ١٩٥٩ م كمدرس في كلية الشريعة، وفي عام ١٩٦٥ م تعاقد مع جامعة الملك عبد العزيز - كلية الشريعة - في مكة المكرمة، وقبل وفاته بثلاث سنوات انتقل إلى الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة رئيساً للدراسات العليا فيها، وكان له دور في وضع مناهجها، وتوفي رحمه الله في شهر رمضان ١٣٩٧ هـ الموافق لعام ١٩٧٧ م على إثر عملية جراحية أجريت له في أحد مستشفيات سويسرا، ودفن في مكة المكرمة، رحمه الله. [عن مقدمة كتاب المسؤولية - وهو من كتب المترجم له - للشيخ محمد سليمان].

مثال تطبيقي:

انطلاقاً من هذا الدرس البليغ الذي علّمنا إياه الشيخ محمد أمين المصري رحمه الله، فإني سوف أطرح هذا السؤال ثم أجيب عليه:

س: هل للجماعات الإسلامية حسنات؟!.

ج: نعم، لهم حسنات.

س: اذكر واحدة منها؟!.

ج: للسلفيين دور لا ينكر في الدفاع عن العقيدة، ونشر لواء السنة، وفضح أهل البدع والضلالة، ومن أجل ذلك فقد تعرضوا للأذى والمحن والتشهير، فما زادهم ذلك إلا صموداً وثباتاً وعطاءً.

ومن آثار هذه الجهود المباركة، إقبال هذا الجيل من أبناء الأمة الإسلامية في كل مكان على كتب التوحيد والحديث، وتبني معظم الجماعات الإسلامية لكتب شيخ الإسلام ابن تيمية، وشرح العقيدة الطحاوية، واهتمام دور النشر بطباعة هذه الكتب لأنها تحقق من وراء ذلك أرباحاً طائلة.

ومن آثار هذه الجهود المباركة أيضاً أن أصحاب البدع والأهواء صاروا يُخَرِّجون الأحاديث التي يستدلون بها في مؤلفاتهم، لأنهم إن لم يفعلوا ذلك فلن تشهد كتبهم رواجاً وانتشاراً، وكان معظم الكتاب قبل عقود قليلة لا يفرقون بين الحديث الصحيح والضعيف، ومن الأمانة أن ينسب هذا الإنجاز الكبير إلى

الجماعات السلفية.

أما الإخوان المسلمون فقد كان لهم شرف تأسيس عمل جماعي تنظيمي يهدف إلى عودة الخلافة الإسلامية، وتحرير بلاد المسلمين من الاستعمار والتبعية، وعندما دعا داعي الجهاد عام ١٩٤٨م من أجل تحرير فلسطين، لبوا النداء، وسالت دماء كثير من أعضائهم على ربي الأرض التي باركها الله سبحانه وتعالى من فوق سبع سموات، ولا يصح أن يذكر تاريخ القدس في العصر الحديث دون أن تذكر استماتة الإخوان في الدفاع عنها عام ١٩٤٨م، ولا يزال الإخوان المسلمون - مع غيرهم من الإسلاميين - يقاومون سياسة الاستسلام التي يسميها المنهزمون سلاماً، وما حركة حماس إلا فرعاً من فروع الإخوان المسلمين.

أما جماعة التبليغ فلا زالت تقدم الدليل تلو الدليل على أنه من الممكن أن ينتقل الداعية من بلد لآخر داعياً في سبيل الله على نفقته الخاصة لا يتلقى مكافأة على ذلك من أحد، ولا ينتظر جزاءً ولا شكوراً إلا من الله الواحد القهار إن أكرمه ومنّ عليه بالأجر والثواب. لقد كانت جماعة التبليغ سبباً في توبة الضالين، وهداية المشركين الكافرين^(١).

كان العلماء والقادة المؤسسون يتعاونون فيما بينهم على البر والتقوى، ويسدون الثغرات التي من الممكن أن يتسلل الشيطان منها فيفسد ذات البين بين الإخوة ويزرع الأحقاد والأضغان في النفوس، ويتمثلون قول الإمام الشافعي

(١) وأقول مثل ذلك في بقية الجماعات الإسلامية التي لم نأت على ذكر محاسنها.

للذي اختلف معه في مسألة: (يا أبا موسى، ألا يستقيم أن نكون إخواناً وإن لم نتفق في مسألة).

ولياذن لي القارئ الكريم في الانتقال قليلاً إلى الأجواء التي ولدت في ظلها أهم هذه الجماعات:

يتحدث الشيخ حسن البنا -رحمه الله- عن موجة الإلحاد والإباحية في المجتمعات الإسلامية فيقول:

(كما كان ينفس عن نفسي كذلك التردد على المكتبة السلفية، وكانت إذ ذاك قرب محكمة الاستئناف، حيث تلقى الرجل المؤمن المجاهد العامل القوي العالم الفاضل والصحفي الإسلامي القدير [السيد محب الدين الخطيب]، وملتقي بجمهرة من أعلام الفضلاء المعروفين بغيرتهم الإسلامية وحميتهم الدينية، أمثال فضيلة الأستاذ الكبير السيد محمد الخضر حسين، والأستاذ محمد أحمد الغمراوي، وأحمد باشا تيمور رحمه الله، وعبد العزيز باشا محمد رحمه الله، وكان إذ ذاك مستشاراً بمحكمة الاستئناف، ونسمع منهم بعض ما ينفس عن النفس، كما نتردد على دار العلوم، ونحضر في بعض مجالس الأستاذ رشيد رضا رحمه الله، وملتقى فيها الكثير من الأعلام الفضلاء كذلك، أمثال الشيخ عبد العزيز الخولي رحمه الله، وفضيلة الأستاذ الشيخ محمد العدوي فتتذكر هذه الشؤون أيضاً. وكان للسيد رشيد رحمه الله جولات قوية موفقة في رد هذا الكيد عن الإسلام) [مذكرات الدعوة والداعية، ص: ٥١].

وعن قرار الجماعة القاضي بإصدار جريدة الإخوان المسلمين يقول البنا:

(لم نجد إلا جنيهين دفعهما الشيخ رضوان محمد رضوان، وهما رأس مال هذه المجلة، وقد كان، وحملت الجنيهين، وذهبت بكل بساطة وإيمان إلى المكتبة السلفية.. وهناك تفاهمت مع السيد محب الدين الخطيب -جزاه الله خيراً على كل شيء- أن يكون مديراً للمجلة، ولكن تطبع بالسلفية، وأن يكون الجنيهان دفعة أولى، وما بقي بعد ذلك فعلى الله، وابتسم الرجل المؤمن المجاهد المحبوب، ووافق على ذلك هو الآخر بكل بساطة وإيمان، فصدر التصريح وبدأ الطبع، فظهرت جريدة الإخوان المسلمين الأسبوعية العدد الأول بتاريخ الخميس ٢٨ صفر ١٣٥٢هـ وذلك يوافق أواخر شهر مايو ١٩٣٣م) [المذكرات، ص: ١٤٠].

وفي موضع آخر من المذكرات يتحدث الشيخ حسن البنا رحمه الله عن مجلة المنار بعد وفاة الشيخ رشيد رضا^(١) رحمه الله:

(توقفت المجلة عن الصدور مرة ثانية، وقد عز على الإخوان أن يخبو ضوء هذا السراج المشرق بالعلم والمعرفة من اقتباس الإسلام الحنيف، فاعتزموا أن يتعاونوا مع ورثة السيد رحمه الله على إصدار المنار من جديد، وقد تم الاتفاق على ذلك، وصدر العدد الخامس من السنة الخامسة والثلاثين في ١٨ يوليو ١٩٣٩) [ص: ٢٥٣]. وكان الشيخ حسن البنا هو رئيس التحرير الجديد.

(١) توفاه الله في: ٢٣/٥/١٣٥٤هـ، الموافق: ٢٢ أغسطس ١٩٣٥م.

وفي عام ١٣٧٢هـ أصدر الأستاذ سيد قطب رحمه الله كتابه [دراسات إسلامية]، واختار الأستاذ محب الدين الخطيب ليقدم الكتاب إلى القراء، وكان مما قاله الخطيب في هذه المقدمة:

(.. كان من حق هذا السّفر النفيس، أن يتولى تصديره رجل أصلب مني عوداً، وأشد قوة، وأحدث سناً، وأجراً على مواجهة الناس بالحق، إنه كتاب السنة في أدب القوة، ولا أعرف كتاباً في هذه السنة يتحدث عن الحق بلسان الحق، كما تحدث أخي الألمعي البليغ الأستاذ سيد قطب في هذا الكتاب.

لذلك كان من الظلم له أن يكتب مقدمته إنسان معتدل متئد وهو في العقد السابع من حياته. لقد واجه سيد قطب بكلمة الحق طوائف كثيرة في كتابه هذا، وكلمة الحق مرة، والذين صفع وجوههم بها يتصرفون بأكثر ما في الأرض من قوى الباطل، وهم كثيرون ملء الدنيا، ولا يقف في وجوه هؤلاء إلا المؤمن القوي، فهنيئاً للأستاذ سيد قطب ما متعه الله به من قوة الإيمان) اهـ.

وقد سمعت العلامة عبد الرزاق العفيفي^(١) رحمه الله يقول: (كان الشيخ حامد الفقي يكثر من نقد الأستاذ حسن البنا، وكنت أقول له:

يا شيخ حامد: حسن البنا يقول للشباب في المعاهد والجامعات [إلى

(١) من رموز الدعوة السلفية، كان رئيساً لأنصار السنة في مصر، ثم انتقل إلى الجزيرة العربية، فكان عضواً في هيئة كبار العلماء، ونائب رئيس لجنة الفتوى.

الإسلام در] ^(١)، وعمله هذا مرحلة من مراحل الدعوة وهو مأجور عليه إن شاء الله، فدعه وشأنه وكمّل معهم المرحلة التي تلي المرحلة الأولى.

أرأيت أخي كيف كان محب الدين الخطيب مدير تحرير أول جريدة تصدر للإخوان المسلمين، وحسن البنا كان رئيس تحرير مجلة المنار بعد وفاة صاحبها رشيد رضا، كما أن حسن البنا كان من كتاب المجلات السلفية، ومن شاء مزيداً من المعلومات فليتصفح أعداد مجلة الفتح وغيرها.

أظنك أخي قد لمست العطف الأبوي الذي تجلى بسرعة استجابة الخطيب لكل ما طلبه منه الشاب حسن البنا مع ما في ذلك من مغامرة مادية ومعنوية، إذ كيف يتكفل هذا الرجل صاحب الخبرة الطويلة بنفقات مجلة لا يملك أصحابها إلا جنيهين؟ ثم يغامر بسمعته فيقبل إدارة مجلة يملكها شباب ليس لهم سمعة في عالم الفكر والأدب، وقد يعرضونه لمواقف قانونية هو في غنى عنها.

لم يحاول محب الدين تشييط همة حسن البنا، ولم يقل لهذا الشاب صاحب المهمة العالية لماذا إصدار جريدة أخرى؟ هذه مجلة الفتح التي قد عرفها الناس وأنت أحد كتابها، وصفحاتها مفتوحة لبقية إخوانك.. لم يقل هذا ولا غيره لأنه كان يعلم حاجة الدعوة إلى همة الشباب الوثابة، كما أنه كان مقتنعاً إلى أن ساحة العمل الإسلامي لا ينبغي أن تكون وقفاً على شيوخ الأزهر.

(١) يستخدم العسكريون شبيهاً بهذه العبارة في تدريباتهم.

وكان الإخوان المسلمون يقدرّون ثقة مرشدهم بخبرة الخطيب وحكمته وسداد رأيه، فعندما نفذت أجهزة أمن فاروق مؤامرة قتل البنا، طلب الإخوان من نائب المرشد العام أحمد حسن الباقوري استشارة الخطيب في مسألة الثأر للمرشد فأبى عليهم ذلك وحذرهم منه^(١).

(١) انظر كتاب: [بقايا ذكريات]، أحمد حسن الباقوري.

إنها السنن

هكذا كان الرجال المؤسسون يتعاونون على البر والتقوى وطاعة الله.. وهكذا كان الأئمة الأربعة، يتلمذ صغيرهم على كبيرهم، كما يعدلون في تقويم بعضهم لبعض، وقد ذكرنا قبل قليل دفاع الإمام أحمد عن الشافعي، وبيان فضله عليه، وما لم نذكره كثير جداً، وكان من المفترض أن يتمسك التلامذة بنهج شيوخهم، غير أن الذي حدث مع مرور الزمن وتقدم العهد خلاف ذلك. لقد أصبح التزمت والتعصب المذهبي مشكلة المشاكل في تاريخنا، وقلد الأتباع هوة تفجير الخلافات بين أبناء الأمة الواحدة، وخالفوا أئمتهم في دعوتهم إلى الوحدة والاتلاف وهي أصل من أصول الدين الإسلامي، ألا فليحذر إخواننا من استبدال التعصب الحزبي بالتعصب المذهبي.

أخي الداعية: هل أنت ممن يتحدثون أمام الناس عن صالح أعمال الذين تختلف معهم في الاجتهاد أو الانتماء؟.. وهل تسر إذا سمعت الناس يشيدون بإنجاز حقيقته جماعة إسلامية لست عضواً من أعضائها، ثم تذهب إليهم مهنتاً مباركاً بما حققوه؟، أم أنك تصمت، ويضيق صدرك، ثم تنطلق قائلاً:

نعم الأمر كما تقولون، ولكن!!، وبعد [ولكن] تذكر مثالب هذه الجماعة، ويفقد هذا الإنجاز معناه، وتصبح موافقتك الشكلية فرصة عندك لانتقاد هذه الجماعة، ومحاولة لتشويه سمعتها.

إن كنت من الصنف الأول فاحمد الله تعالى الذي منّ عليك بنعمة العدل

والإنصاف، وإن كنت من الصنف الثاني فحاسب نفسك قبل أن تحاسب.

وهل يرضيك اغتياب جلسائك للغير، فتشاركهم الحديث، وتقدم لهم معلومات يجهلون بها وقد يختلط فيها الحق بالباطل، أو تقابل الحديث بابتسامة تنم عن الموافقة وإن لم تتكلم، أم أنك تتذكر حديث رسول الله ﷺ: «من رد عن عرض أخيه كان حقاً على الله أن يرد عن عرضه يوم القيامة»^(١)، فتذب عن عرض أخيك، وتنصفه في غيبته، وتدفع عنه الظلم، وتلقن المستمعين درساً في حرمة الغيبة والنميمة.. لا تتردد أخي المسلم في اختيار الطريقة الثانية.

وأنت يا من أكل بعض إخوانك لحملك، وتمادوا في ظلمك، لا تقابل السيئة بمثلها، قال تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران]

وإياك والاستدراج إلى مهاوي الفتن، واترك مجالاً لظالميك ليحاسبوا أنفسهم، وتمثل قول الشاعر:

(١) أخرجه أحمد في المسند: (٤٤٩/٦)، وقال ﷺ في هذا المعنى: «من حمى مؤمناً من منافق [أراه قال] بعث الله ملكاً يحمي لحمه يوم القيامة من نار جهنم، ومن رمى مسلماً بشيء يريد شئنه به حبسه الله على جسر جهنم حتى يخرج مما قال»، صحيح أبي داود: (٤٠٨٦).

وإن الذي بيني وبين بني أبي
فإن أكلوا لحمي وفرت لحومهم
ولا أحمل الحقد القديم عليهمو
لهم جُلُّ مالي إن تتابع لي غنى
ووين بني عمي لمختلفٍ جدًّا
وإن هدموا مجدي بنيت لهم مجدًّا
وليس رئيس القوم من يحمل الحقدًا
وإن قل مالي لم أكلفهم رِفْدًا^(١)

اعلم أخي الداعية أن من العدل المسارعة إلى الاعتذار من أخيك عندما ترتكب خطأ نحوه، كما أنه من العدل قبول الحق من المخالف، وإن كان هذا المخالف جماعة، ولا يجوز لك استئذان جماعتك في مسألة قبول الحق، فالحق أقوى من الجماعات ومن الرجال مهما بلغ شدة إعجابك بهم، وعظيم تقديرك لعلمهم وفضلهم.. فارفع شعار العدل في جميع أمورك إذا أردت أن تعود هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس.

(١) للشاعر: المقنع الكندي، ديوان الحماسة.

الفصل الثالث

سؤال وجوابه

سؤال وجوابه

عندما جاء دور الأسئلة في المحاضرة^(١) التي سميتها [العدل والإنصاف] أيقنت أن بعض الحضور لم يستفد من المحاضرة، ومما ورد فيها من الأدلة، لهذا فقد أعدت الإجابة على أهم هذه الأسئلة وحرصت على إلحاقها بالمحاضرة لتكون جزءاً منها، وتعم الفائدة إن شاء الله.

السؤال الأول: أوشكت المحاضرة على الانتهاء، وأخشى أن يفهم الحضور من خلال ما ذكرته عن جماعة الدعوة والتبليغ أنك توثقهم وتزكيهم فهلا تفضلت بالحديث عن انحرافاتهم حتى يحذر الناس منها؟!.

الجواب: ذكرت في المحاضرة حسنة واحدة من حسنات كل جماعة من أبرز جماعات الدعوة، وقلت عن جماعة التبليغ: (لا زالت تقدم الدليل تلو الدليل على أنه من الممكن أن ينتقل الداعية من بلد إلى آخر في سبيل الله على نفقته الخاصة لا يتلقى مكافأة على ذلك من أحد، ولا ينتظر جزاءً ولا شكوراً إلا من الله الواحد القهار)، وقلت أيضاً: (لقد كانت جماعة التبليغ سبباً مهماً في توبة الضالين، وهداية المشركين الكافرين).

(١) كان هذا المبحث في الأصل محاضرة ألقيتها في ندوة من ندوات جمعية عقبة للتعاون والإصلاح ببريطانيا.

واشترطت أن لا يتبع ذكر هذه الحسنة كلمة [ولكن] ثم يذكر بعد ولكن جملة من مثالب وعيوب هذه الجماعة، ويصبح ذكر هذه الحسنة مجالاً لانتقاص الجماعة وتشويه سمعتها، فما هو وجه الخطأ فيما ذكرته، ولماذا ضاق صدر السائل من ذكر الحسنة، وخشي أن ينفُصَّ المجتمعون دون أن نشبع جماعة التبليغ نقداً وتجريحاً وتسفيهاً؟! أما كان يكفيه قولي في نفس المحاضرة: (هؤلاء الإخوة لا بد وأن لهم أخطاء ومن الذي يخلو من الذنوب والأخطاء؟!، ولا بد وأن تجد نفسك مضطراً لتفنيد هذه الأخطاء، وبيان مخالفتها للأدلة الشرعية، فلا بأس مما تفعل، ولكن لا تكتب وأنت في حالة غضب، ولا تتهم إخوانك في نواياهم، وأحسن الظن بهم، ولا تنس فضلهم في العمل الإسلامي، وإياك وظلمه).

قد يكون السائل حسن النية ويردد كلاماً سمعه من غيره دون أن يدرك أبعاده ومراميه، ولكن السؤال بحد ذاته أرعبني لأنه يمثل عقلية شريحة واسعة في مجتمعاتنا تبحث دائماً عن مواطن الاختلاف، وتشتغل في تتبع أخطاء الآخرين وعيوبهم، تضيف على هذه الاهتمامات المشبوهة حلةً شرعية، وترغم أن ما تفعله عبادة تتقرب بها إلى الله سبحانه وتعالى، وكان بين الحضور من يرى مثل رأي السائل، حتى أن أحدهم قال لي مشافهة: هذه محاضرة مجاملات وتطييب خواطر!!.

لا أريد هاهنا الوقوف عند قول هذا الأخ وبيان سوء فهمه لما سمع في هذه المحاضرة، وإنما يهمني مناقشة جوهر المشكلة المثارة من خلال الجواب على السؤال الآتي:

هل أنا ملزم إذا ذكرت حسنة من حسنات داعية أو جماعة أن أذكر عيوبه
وماخذي ثم ماخذ الآخرين عليه؟!.

لنحتكم جميعاً إلى حديث رسول الله ﷺ، ثم إلى أقوال العلماء:

١ - عن موسى بن علي عن أبيه قال: قال المستورد القرشي عند عمرو بن العاص: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تقوم الساعة والروم أكثر الناس». (فقال له عمرو: أبصر ما تقول. قال: أقول ما سمعت من رسول الله ﷺ، قال: لئن قلت ذلك، إن فيهم لخصالاً أربعاً: إنهم لأحلم الناس عند فتنة، وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة، وأوشكهم كرة بعد فرة، وخيرهم لمسكين ویتيم وضعيف، وخامسة حسنة جميلة: وأمنعهم من ظلم الملوك) اهـ^(١).

قال العلامة صديق حسن خان^(٢): (لم يشرح النووي هذا الحديث ولم يبين من المراد ب[الروم]، والظاهر أنهم النصارى، وهذه الخصال الخمس موجودة فيهم، وهم ولاية الأمر اليوم في أكثر الأرض، وهذه معجزة ظاهرة للنبي ﷺ حيث وقع ما أخبر به مطابقاً لنفس الأمر، والله الأمر من قبل ومن بعد).

٢ - قال محمد بن إسحاق: (فلما رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من

(١) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفتن، باب تقوم الساعة والروم أكثر الناس، انظر مختصر صحيح مسلم للمنذري، الحديث رقم: (٢٠٢٦).

(٢) صديق حسن خان ولد عام ١٢٤٨ هـ وتوفي عام ١٣٠٧ هـ، وقد كانت بريطانيا والدول الأوربية خلال هذه الفترة تحكم أكثر أهل الأرض كما قال الشيخ صديق حسن في شرحه للحديث.

البلاء، وما هو فيه من العافية، بمكانه من الله عز وجل، ومن عمه أبي طالب، وأنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء، قال لهم: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد، وهي - أرض صدق - حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه»^(١).

تأمل -حفظك الله- إلى هذه الخصال النادرة التي اجتمعت في أمة كافرة، وعمرو بن العاص رضي الله عنه من أعرف الصحابة رضوان الله عليهم بأحوال الروم، ففي جاهليته كان يتعامل معهم بالتجارة، وحاربهم بعد إسلامه في فلسطين، ولم يذكر هذه الخصال عنهم إلا بعد أن تثبت من نقل المستورد القرشي، ولم يجد نفسه ملزماً بذكر عيوبهم ونقائصهم وهو يتحدث عن صفاتهم المحمودة.

وتأمل أيضاً ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم عن النجاشي: «إن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد»، ولم يكن النجاشي قد أسلم، ووصف أرضه بأنها أرض صدق، لم يصف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ما قاله عن النجاشي [ولكن] ثم يذكر بعدها مساوئه وأخطائه، ولو كان مثل هذا الأمر لازماً وواجباً لفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وإذا كان ذكر الخصال الحميدة في الكفار لا يلزم أن يصحبه دائماً ذكر الخصال الذميمة فيهم، فما بالكم بجماعة إسلامية تدعو إلى الله، وتبذل أنفس ما تملكه من إمكانات مادية ومعنوية من أجل هداية الضالين وإرشاد التائهين، وحاشا لله أن يكون هؤلاء المؤمنون مثل أولئك الضالين المشركين.. وفضلاً عن

(١) البداية والنهاية: (٦٦/٣).

ذلك فقد وثق هذه الجماعة، وشهد لها بالخير مفتي الديار السعودية السابق العلامة محمد بن إبراهيم رحمه الله، ومفتي الديار السعودية الحالي العلامة عبد العزيز بن باز^(١).

أشاع بعض خصوم جماعة التبليغ أن الشيخ عبد العزيز بن باز قد تراجع عن تأييد جماعة التبليغ، فقال الشيخ - رحمه الله - في صدد رده على هذه الإشاعة:

(فأخبركم أنني لا زلت على رأيي في الجماعة المذكورة فيما كتبه عنهم قديماً وحديثاً من الكتابات الكثيرة، وما كتبه سلفي شيخنا الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ قدس الله روحه ونور ضريحه..)

وأضاف قائلاً: (فالواجب شكرهم على عملهم وتشجيعهم وتبنيهم^(٢) على ما قد يخفى عليهم، وذلك من باب التعاون على البر والتقوى والتناصح بين المسلمين إلا أنني أنصحهم وجميع المسلمين لاسيما الشباب أن لا يسافر منهم إلى بلاد الكفار إلا أهل العلم والبصيرة لما في ذلك من الخطر العظيم على كل من ليس له علم بالشريعة الإسلامية والعقيدة الصحيحة التي بعث الله بها محمداً ﷺ، ودرج عليها سلف الأمة. أما ما نسبته المعارضون لهم عني من الرجوع عن رأيي فيهم فهو كذب علي بل إنني نصحتهم ووبختهم على عملهم، وقلت لهم فيما قلت متمثلاً بقول الشاعر:

(١) رحم الله الشيخ فلقد توفاه الله بتاريخ ٢٦ محرم ١٤٢٠ هـ.

(٢) يشير الشيخ إلى تبنيهم ونصحهم إذا أخطؤوا، وهذا يعني أن التأييد ليس مطلقاً.

أقلوا عليهم لا أبأ لأبيكموا من اللوم أو سُدّوا المكان الذي سدّوا
 وحرصتهم على كثرة الاجتماع بهم، والخروج معهم، وأوضحت لهم ما فيه
 من الفوائد، وطلبت منهم أن يتهموا الرأي، وينظروا في العواقب وبينت لهم ما
 في شقاقهم وخلافهم من الشر العظيم، وسوء العواقب في الدنيا والآخرة، وأن
 ذلك من الشيطان.. أعادنا الله منه ليصرف الناس عن الدعوة إلى الله، ويشغلهم
 عنها بفساد ذات البين، وكثرة القيل والقال.. هذا ما أدين الله به وأعتقده، وأسأل
 الله أن يرينا الحق حقاً ويمنحنا الثبات عليه، والباطل باطلاً ويمن علينا اجتنابه،
 ولا يجعله ملتبساً علينا فنضل، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وصلى الله على عبده
 ورسوله الذي بعث رحمة للعالمين وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى
 يوم الدين، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته^(١).

لقد كان رد الشيخ -رحمه الله- مفحماً للذين أشاعوا عنه قولاً لم يقله،
 ويصلح أن يكون رداً على هذا الذي غضب لأني ذكرت حسنة واحدة لجماعة
 التبليغ، ويصلح أيضاً أن يكون رداً على كل من يشغل نفسه، بالقيل والقال،
 وكثرة السؤال، وإشاعة الخلاف، وإفساد ذات البين بين عباد الله المؤمنين.

ومما لفت نظري أن الشيخ غضب من الذين زعموا أنه رجع عن رأيه الأول
 في توثيق هذه الجماعة، وقليلاً ما يغضب الشيخ في أحاديثه وردوده، ولينظر من
 شاء إلى قوله: (أما ما نسبته المعارضون لهم عني من الرجوع عن رأيي فيهم فهو

(١) فتوى بتاريخ ٢٧/١/١٤٠٧هـ، وقد نقلتها باختصار يسير.

كذب علي بل إني نصحتهم ووبختهم على عملهم).

وفي غضبة الحليم دليل واضح على أن المسألة مهمة ويجب أن تحسم بطريقة يفهمها الذين يعيشون على نهش لحوم الدعاة.. وبعد أن أشار الشيخ إلى كذب قولهم حذرهم من عاقبة الشقاق وإفساد ذات البين ثم قال: (وأن ذلك من الشيطان) فهل يرعوي هؤلاء الذين لا يتحملون ذكر حسنة واحدة لداعية أو جماعة يختلفون معها في الرأي والاجتهاد؟! وهل يرتدع هؤلاء الذين لا هم لهم إلا تتبع سقطات الناس وزلاتهم، ثم اتخاذهم هذه الانحرافات منهجاً لهم، وديناً يتعبدون الله به؟!.

سائل آخر ينتمي إلى شريحة أخرى من شرائح العمل الجماعي الدعوي مناقضة للشريحة التي ينتمي إليها السائل الأول، أعرب عن إعجابه بالمحاضرة ودعا إلى مزيد من هذه المحاضرات والكتابات، ترى هل كان سيقف مثل هذا الموقف لو تضمنت المحاضرة نقداً لجماعته؟!.

من منطلق معرفتي بواقع الحال أقول: لقد أشاد المحاضر بجماعة السائل وبدورها الإيجابي في ميدان العمل الإسلامي، وهذا مكسب للجماعة من رجل يختلف معها، وهو أيضاً الحق والعدل والإنصاف، ويستحق التعميم ليقراً الناس ويسمعون فضائل هذه الجماعة من أفواه خصومها!!.

ولو تضمنت هذه المحاضرة نقداً لجماعة السائل لاختلف الموقف تماماً، وأقل ما سوف يقوله إذا كان حليماً واسع الصدر [وهو كذلك إن شاء الله]: ليس

هذا هو الموضوع المناسب للنقد.

من جهتي سوف أستمر على هذا النهج إن شاء الله، ولن أحيده عنه، ولكن الأمور لا تسير نحو الأفضل من طرف واحد، والعدل عام يشمل النفس وأولي القربى والأصدقاء والأعداء، وإنني أدعو هذا الأخ الفاضل إلى ممارسة النقد الذاتي داخل إطار جماعته من أجل تهيئة الأجواء المناسبة لوحدة الصف ورأب الصدع، ولعل ذكر المثالين التاليين يلفتان نظر هذا الأخ وأمثاله إلى أهمية الإصلاح من الداخل:

المثال الأول: اطلعت على نشرة دورية تصدر في إحدى الدول الغربية، تمثل موقف هذه الجماعة من الأحداث التي تشهدها الساحة العربية، ولقد استوقفتني أمور ثلاثة في هذه النشرة:

الأمر الأول: كان موقف هذه النشرة من أحداث الجزائر، ترداد لما يقوله ممثل هذه الجماعة، وهو لا يختلف كثيراً عن موقف السلطة الباغية الطاغية التي قتلت بصورة وحشية أكثر من خمسين ألفاً^(١) من الدعاة الأبرياء، وكانت تلقي بجثث البارزين منهم أمام المساجد.

إنني أفهم أن تستنكر النشرة الجرائم التي ارتكبتها الغلاة، وأفهم كذلك أن تقف موقفاً مخالفاً لجمهور الإسلاميين بسبب اختلاف الاجتهادات، لكنني لا

(١) تضاعف هذا العدد فيما بعد.

أفهم تجاهل المجازر التي يرتكبها الطغاة العسكريون، ولا أفهم أيضاً الاشتراك بوزارة علمانية خبيثة، وهو ما فعلته هذه الجماعة، ولا أفهم كيف تكون منظمات حقوق الإنسان غير المسلمة في ديار الغرب أكثر رحمة من ممثل هذه الجماعة في الجزائر. لقد استمعت ذات مرة إلى مقابلة إذاعية عن الوضع في الجزائر، وما كنت أعرف في البداية اسم هذا الرجل الذي تستضيفه الإذاعة، ولكنني تساءلت وأنا أتابع أجوبته: من أين جاء العسكريون بممثل لهم يستطيع استخدام المفردات الإسلامية؟ وفوجئت أخيراً بأن هذا الذي يتحامل على الجبهة الإسلامية للإنقاذ، ويلتمس الأعذار للنظام هو مسؤول هذه الجماعة!!.

فإذا كانت هذه النشرة لا تريد نصرة المظلومين من إخوانهم (وهذا أمر لا نريده ولا نرضاه لهم) فلا أقل من السكوت، وعدم ترداد أقوال ممثل الجماعة.

الأمر الثاني: استنكرت النشرة سياسة البطش وكم الأفواه في الوطن العربي، ونددت بالاعتقالات العشوائية، لكنها وهي تتحدث عن السجناء في البلدان العربية لم تشر من قريب أو بعيد إلى أسماء الذين لا ينتمون لجماعتهم.. كيف ذلك؟ لعلي لم أفهم ما يقولون؟ وبعد أن قرأت المقال مرة ثانية وثالثة اتضح لي صحة ما فهمته في المرة الأولى، وتعجبت أشد العجب من منطلق هؤلاء الذين يفصلون بين السجناء الذين ينتمون لجماعتهم، فيدافعون عنهم. وي طرحون قضيتهم بقوة، وبين السجناء الذين لا ينتمون إلى جماعتهم فلا يشارون إليهم إلا بالنقد والاستنكار.

إننا طالما تحدثنا عن السجناء الذين يتمون إلى هذه الجماعة، ولا فضل لنا في ذلك لأن الله تعالى قد أمرنا بنصرة إخواننا، والواجبات الإسلامية ليس فيها سياسة المعاملة بالمثل.. ولكن أين هؤلاء من هذه الواجبات؟.. ألا يشعرون بشعور إخوانهم، وأين هم من حديث رسول الله ﷺ: «المسلمون كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر»، ألا يرون أن رسول الله ﷺ قال: «المسلمون» ولم يقل: [الحزبيون منهم]، فإن قالوا: نحن نستنكر نهجهم ومواقفهم وتسرعهم، قلنا لهم: ليس المطلوب منكم تأييد خطيئهم، ولكن المطلوب منكم استنكار الظلم الذي لحق بهم، وأنتم من أدري الناس بظلم الطغاة، وقد عانيتم ألواناً من تنكيلهم لا تنسى مع أنكم ترفقتم بهم، وألتمت معهم الخطاب، وآثرتم الدعوة السلمية فما أغنى عنكم ذلك من السجن والتشريد والابتلاء شيئاً.

الأمر الثالث: بالغ أصحاب النشرة في الحديث عن قوتهم، وعن التفاف الناس حولهم في بلدهم، وكانوا يكررون القول بأنهم وحدهم الذين يتبنون شمولية الدعوة الإسلامية، ولا يهتمون بجانب من جوانب العمل الإسلامي ويهملون الجوانب الأخرى كما تفعل الجماعات الأخرى.

إنني أعلم جيداً أن العمل الإسلامي في مفهومه الجماعي في بلد هؤلاء الإخوة حديث النشأة، وطغيان النظام الحاكم لا يسمح بترسيخ جذور الدعوة في أعماق القواعد الشعبية، وهذا يعني أن الحديث عن قوتهم أو قوة غيرهم ادعاء لا

يسنده دليل، أما شمولية الدعوة فهي سمة أساسية من سمات ديننا لا يستطيع المسلم إنكارها، ولو تطلع هؤلاء الإخوة حولهم بعين الواقع لعلموا أن أكثر العاملين إلى الله [من جماعات وأفراد] يتبنون الشمولية في دعوتهم، ومن جهة أخرى فقد تكون الشمولية حجة على الذين ينادون بها إذا لم تعط حقها، وإذا طغت الجوانب الغوغائية العائمة على التأصيل الشرعي والإعداد التربوي.

المثال الثاني: ضمّني لقاء مع بعض هؤلاء الإخوة، وتناولنا في حديثنا أموراً كثيرة، ولكن معظم أحاديثهم كانت تدور حول مقال لشيخ من كبار شيوخهم كتبه يرد به على فتوى أصدرها شيخ جليل فاضل.. أصغيت إليهم وهم يتحدثون واحداً بعد الآخر عن قوة مقال شيخهم وسعة إمامه وغير ذلك من التبجيل والتضخيم، وآلمني بعد ذلك انتقالهم إلى حديث آخر دون أدنى إشارة إلى موقف غير شيخهم من هذه المسألة، وهنا تدخلت فقلت لهم:

حقاً كان رد شيخكم مهماً ومفيداً، وكان الشيخ -حفظه الله- ملتزماً بالأدب النبوي، وأعجبني تواضعه الجرم مع من هو أكبر منه علماً وسناً، ولهذا فقد سارعنا إلى نشر مقاله في مجلة [السنة]، لاقتناعنا بما كتبه، وحرصاً منا على أن لا تكون لنا مواقف سلبية مع من نختلف معهم في الاتجاهات والانتماءات، ونود منكم أيها الإخوة المعاملة بالمثل بل نود أرباع أو أسداس المثل، ونود منكم قبل ذلك العدل والإنصاف مع إخوانكم المسلمين جميعاً.

قالوا: كيف؟!.

قلت: لماذا أظنتم في الحديث عن مزايا وأهمية فتوى شيخكم، وسكنتم عن موقف شيوخ آخرين قابلوا شيخهم الجليل الذي أصدر الفتوى [إياها]، وناقشوه فيما أفتى به، وأثبتوا من خلال مناقشتهم أموراً غابت عن ذهن الشيخ، ثم سجلوا المقابلة بشرط [كاسيت] جرى توزيعه في جميع بلاد العالم، وكان هؤلاء الشيوخ يعلمون تمام العلم أنهم سيدفعون الثمن باهظاً، ومع ذلك لم يترددوا فيما أقدموا عليه، وقبلوا نتائج عملهم بكل ارتياح وطيب خاطر. وكان السجن من جملة هذه النتائج، ولا يزالون منذ ذلك التاريخ رهن الاعتقال، أما شيخكم فقد كان يعلم أنه لن يتعرض بسبب هذا الرد لأية مساءلة أو اعتقال، فكيف طاواعتكم ضمائركم -أيها الأخوة- أن تتجاهلوا موقف هؤلاء الشيوخ الأبطال؟!.

يلمس المراقب مصداق ما ذكرته في هذين المثالين في خطب الجمعة وفي الندوات العامة والخاصة، وفي المجلات والمؤلفات، وعلى هذا الظلم يترتب الأنصار والأعوان، وتنشأ الأجيال، وتحدد العلاقات والأواصر بين الأخوة، ويقابل الآخرون هذا التعصب بمثله أو بما هو أشد منه، فالحق ما نفعله وحدنا دون غيرنا -على حد زعمهم-، ولا نستنكر الطغيان إلا إذا كنا نحن وحدنا ضحاياه، ولا شأن لنا بغيرنا، لقد حولنا بسوء عملنا جماعات الدعوة إلى قبائل متصارعة متناحرة، وتاريخ كل جماعة ورجالها ليس له أية صلة بالجماعة الأخرى، فشيوخكم غير شيوخنا، ومشكلاتكم غير مشكلاتنا. وقد برع البعض في إصدار البيانات التي يتبرأ فيها من إخوانه، وهم في أشد الحاجة إلى مد يد

العون إليهم وشد عضدهم، ومن عقوبة الله العاجلة لهؤلاء الناس أن أجهزة إعلام الطغاة ترفض هذه البيانات وتعتبرها نوعاً من أنواع التضليل والخداع، وذلك لأن الجماعات الدعوية في منظورها جماعة واحدة وإن زعمت خلاف ذلك، وهي كلها قائمة على العنف والإرهاب.

والله الذي لا إله غيره إننا لن نحقق أهدافنا إلا إذا تخلقنا بأخلاق سلف هذه الأمة وعدلنا في أحكامنا وأعمالنا وأقوالنا، وهكذا كان الرجال الذين أسسوا هذه الجماعات المعاصرة.

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشبه بالكرام فلاح

الباب الثاني

الإرهاب داخل الصف الإسلامي

ويشمل الفصول التالية:

الفصل الأول: أمثلة تؤكد وجود هذا الإرهاب.

الفصل الثاني: الإرهاب الفكري.

الفصل الثالث: الدوافع والأسباب.

الفصل الأول

أمثلة تؤكد وجود هذا الإرهاب

– المثال الأول من تجربة النظام الخاص

– المثال الثاني من سورية

– المثال الثالث من مصر

– المثال الرابع من أفغانستان

– المثال الخامس من الجزائر

أمثلة تؤكد وجود هذا الإرهاب

في غمرة وقوع قتال مسلح بين مجموعة إسلامية، وطغاة مجرمين، قُتل شيخ من الشيوخ المعروفين بتعاونهم مع النظام، واستغلت السلطة هذا الحدث لتؤلب الرأي العام ضد أعدائها، وتوهم الشيوخ كلهم بأنهم مستهدفون من قبل هذه المجموعة التي اتهمتها بقتل الشيخ.

كان من المتوقع أن يبقى هذا الحدث في حدوده الطبيعية ومن غير مضاعفات، لولا خلاف هذه المجموعة مع جماعة كانت الأولى جزءاً منها ثم انفصلت عنها بسبب تبنيها المواجهة المسلحة مع النظام.. ومن بين الاتهامات المتبادلة بين الطرفين ادعاء الجماعة بأنها تلقت تهديداً من قيادة المجموعة بقتل نفر منهم إذا استمروا في حوارهم مع السلطة، وإن أمراً قد صدر بقتل الوسيط بينهم وبين النظام، والذي كان بالأمس شخصية قيادية في هذه الجماعة ثم تخلى عنها وعن العمل الإسلامي كله.

في أحد لقاءاتي المحدودة مع قائد هذه المجموعة سألته عن مدى صحة ما يقوله إخوان الأمس، فضحك طويلاً ثم قال: كنا نعلم أن هذه التهديدات تخيفهم، وتدفعهم إلى قطع حوارهم مع السلطة، وليس وارداً عندنا قتل أحد منهم.. ثم استرسل يقول: ليست هذه هي المرة الأولى التي نهدهم فيترجعون، فذات مرة كنا نعلم أنهم سيعقدون اجتماعاً مهماً، كما كنا نعلم المكان والزمان، وبينما كانوا مستغرقين في اجتماعهم اقتحمت المنزل مجموعة مسلحة من أفرادنا ترتدي

لباس رجال الأمن^(١).. الخ، ومع ذلك فإننا نحرص على أن يفهموا بأننا جادون في تنفيذ هذه التهديدات!.

صدمتني إجابة الأخ على سؤالي، فقد كنت أعتقد أن الرواية ملفقة لا أصل لها، وصدمتني أيضاً ضحكاته:

أيجوز التهديد بالقتل إذا اختلفت الاجتهادات؟ ومن ثم أيجوز أن يكون هذا التهديد مزاحاً، أو أن يكون القصد منه التخويف؟ وما الضمان لعدم تنفيذ هذه التهديدات؟.

جاء الجواب على هذه الأسئلة بعد حوالي عام واحد، كانت علاقات الطرفين خلاله قد مرت بمراحل شديدة التقلب والتناقض، فقد عادوا جماعة واحدة بعد العداوة والتهديد بالقتل، ونظّم الطرفان زيارات للقواعد كانوا يتبادلون فيها الثناء والاحترام، وكان التلامذة بشكل خاص يشيدون بدور شيوخهم المجيد في التربية والبناء.. وبعد مضي أشهر قليلة بدأ التلامذة يتحدثون عن مؤامرات، يدبرها الشيوخ في الخفاء، والشيوخ ينكرون ذلك، ويحاولون سحب ما بقي من البساط تحت أقدام التلامذة.

وتفجّر الخلاف بعدما أعلن رسمياً عن تحالف الشيوخ مع الأحزاب العلمانية، ومن قبل فقد نجح الشيوخ بدهائهم باحتواء عدد من قيادة المجموعة

(١) ليس مهماً ذكر بقية هذا الخبر.

وأفرادها، وهم الذين ربوهم ويعرفون جيداً مواطن الضعف عندهم.

هذه المرة كان الخلاف أعنف من المرات السابقة، وحكم التلامذة على شيوخهم بالردة^(١)، وراحوا يجمعون أقوالاً شاذة ويقدمونها على أنها فتوى وأدلة، وعقوبة المرتد القتل - كما هو معروف -، وكنت أنصح من ألقاه منهم بالعدول عن هذه الأقوال الشاذة والمواقف المتطرفة المتشنجة.

كان من بين الذين التقيت بهم قائد هذه المجموعة، وفي بداية جلستنا بادرني قائلاً: سمعت أنك لا تقول بردة هؤلاء الذين تحالفوا مع العلمانيين.

قلت: إنني أستنكر تحالفهم مع العلمانيين كما أستنكر الحكم عليهم بالردة.. وكان لا بد من الدخول معه بنقاش طويل، وكان واضحاً عندي أنه لا يتكلم عن معرفة ودراية، غير أن انطباعي عنه في جلساتي معه أنه كان مهذباً ودوداً يحسن الاستماع.. وبينما كنت أفند شبهاتهم وأرد عليها، ذكرت أقوال بعض الأئمة في قتل تارك الصلاة حداً لا ردة، وأحسب أنه لأول مرة يسمع هذا الحكم، فضحك وقال:

سيدي: نقتلهم حداً!!، وهكذا فقد عادت نعمة التهديد بالقتل ومعه فتوى بالردة والمروق عن الدين، وعاجلت المواقف الحاسمة هذا الكيان الهزيل المتداعي فلا التحالف نجح ولا تنفيذ الحكم بقتل المرتد قد تم، وعلى نقيض ذلك فقد نجح

(١) مما يقتضي التنويه أن هذه الأمثلة أصبحت في ذمة التاريخ، ولم تعد ملكاً لهذه الجهة أو تلك، ولا بد لنا ونحن ندعو إلى الإصلاح من مواجهة أخطائنا بصراحة، وليس في نيتي -علم الله- النيل من أي داعية أو من أية جماعة.

الطاغوت في تحقيق أهدافه الإجرامية الخبيثة، وأعطيناها -بسوء أعمالنا ومواقفنا- المبرر لإجهاض تجربة إسلامية عمرها أكثر من نصف قرن.

وللإنصاف أقول: إن الشيوخ كانوا أول من استخدم الإرهاب الفكري والإعلامي في تعاملهم مع التلامذة -أعضاء المجموعة-، فعندما كان التلامذة يطرحون تساؤلات يرون أنها مهمة، ويبحثون عن أجوبة مقنعة تزيل الشكوك التي تراودهم، كانوا يقابلون بالإعراض والتهديد والتشكيك بالنوايا، مما أدى إلى زيادة الشكوك وتفاقم الخلافات، وأخيراً صدرت الأوامر بفصل من أسموهم بالمشاغبين الفوضويين، ومقاطعتهم، وإطلاق الإشاعات ضدهم.

استجاب أعضاء الجماعة لأوامر المقاطعة، وانصرف الكثير - وخاصة الأقران - إلى ترويج الإشاعات التي لا يصح معظمها، وأحس التلامذة بعزلة ما كانوا يتوقعونها، وفقدوا الثقة بقيادة وشيوخ كانوا بالأمس يقدرونهم أشد التقدير، ويجنونهم أعظم الحب، ويفدونهم بالأنفس، والأموال، ويضعونهم في مراتب أصحاب رسول الله ﷺ.. وعندما تصل الأمور إلى هذا المستوى يتعذر العودة إلى أيام الصفاء، كما يتعذر استرداد الثقة مهما بُذل من جهود ومحاولات:

إن القلوب إذا تنافر ودها مثل الزجاج كسرها لا يجبر

وزادت الأمور تعقيداً بعد صدور قرارين: قرار بحمل السلاح اتخذته

المجموعة ضد السلطة التي قتلت شيخهم رحمه الله بطريقة دنيئة^(١)، وقرار مناقض للقرار الأول اتخذته الجماعة، وكان صائباً سليماً - من وجهة نظري - لولا حملات التشنيع التي رافقته.. ولما رأى أصحاب هذا القرار أن شبابهم بدؤوا يتخلون عنهم، وينضمون إلى المجموعة التي نفذت عدداً من العمليات الناجحة التي أوقعت الرعب بالسلطة، اتخذوا قراراً بإعلان الجهاد ضد السلطة، وإذا كانت هذه المسألة هي سبب طردهم لإخوانهم وأبنائهم أعضاء المجموعة، فالقرار الجديد يعني وحدة الصف، وإعطاء القوس باريها، غير أن شيئاً من هذا لم يحدث، وقامت الجماعة بتنفيذ مجموعة من العمليات الفاشلة، ونشطت إعلامياً في هذا المضمار، ووجدوا في الخارج من يساعدهم ويشد عضدهم، ويقدم المساعدات السخية لهم.

أما المجموعة فكانت تفتقد الإعلام الذي تبين من خلاله حقيقة ما يجري على أرض المعركة، وأكثر الناس في الخارج صدّقوا بأن الجماعة هي المسؤولة عن جميع العمليات التي تحدث، وآمنوا بأن الأموال يجب أن تدفع إليها وحدها، ومن المفيد ممارسة الضغط على شباب تمردوا على شيوخهم من أجل إرغامهم على العودة إلى الصف الذي ينبغي أن يتوحد المسلمون من خلاله.

وهذا من غير شك كله من أوله إلى آخره إرهاب واستبداد وقهر، فالشباب في ظل هذه الأجواء الخائفة المحمومة ما عادوا يفرقون بين السلطة الغاشمة، وبين إخوان الأمس، لاسيما وأن حجب الأموال حقق ما عجز عنه الطغاة الظالمون،

(١) انظر مساجد الضرار، كيف نحصن الصف الإسلامي من المنافقين؟.

فالعاملات توقفت، والجماعة لم تقم بواجبها، وليست قادرة على ذلك لو أرادت، والأمور تسير نحو الهاوية.

لو كان هذا المثال فريداً من نوعه في ساحة العمل الإسلامي لما أوليناه عنايتنا، لكنه تحول إلى سلسلة متصلة من الأحداث تتضخم مع مرور الزمن، فهي مثلاً في الثمانينيات والتسعينيات أضعاف ما كانت عليه في السبعينيات والستينيات، ومن جهة ثانية فالإرهاب الفظيع الذي يعاملنا به الطغاة يجب أن لا ينسينا مشكلاتنا وضرورة البحث عن حل لها.. والأمثلة الآتية تبين لنا حجم هذه القضية:

المثال الأول من تجربة النظام الخاص:

يقول كُتّاب جماعة الإخوان المسلمين الذين شاركوا في تحمل مسؤولية قيادة الجماعة في الأربعينيات وأوائل الخمسينيات:

(أنشأ الشيخ حسن البنا رحمه الله جهازاً عسكرياً داخل الإخوان [النظام الخاص]، من أجل مقاومة الاستعمار في مصر وفلسطين وبقية بلدان المسلمين التي تئن تحت وطأة الاستعمار).

ولم يبق هذا الجهاز كما أراد البنا، فبعض القائمين عليه استقلوا بقيادته واقتبسوا من الجيوش العسكرية مفهوم طاعة الجندي المطلقة لرئيسه، ومفهوم نفذ ثم اعترض.

وتحت شعار طاعة الجندي المطلقة صدرت الأوامر باغتيال النقراشي [رئيس

الوزراء] واغتيال القاضي الخازندار، وكانت السلطة تحمّل حسن البنا مسؤولية هذه الجرائم التي كان يسمع بها كغيره من عامة الناس في مصر، وقال ذات مرة [في بيان نشرته الصحف] مشيراً إلى هؤلاء الذين يرتكبون هذه الأحداث: (ليسوا إخواناً وليسوا مسلمين).

وأخيراً دبّرت قوات أمن فاروق حادث اغتيال حسن البنا رحمه الله.

وجاء المرشد الثاني للإخوان المسلمين حسن الهضيبي، كان منذ بداية مسؤوليته غير مقتنع بهذا الجهاز، وتشاركه القيادة في هذه القناعة، واتفقوا أن يتم حله بالتدريج، فاختاروا [سيد فايز] ليكون مسؤولاً للنظام الخاص بدلاً من السندي، ولكن الأمور تطورت، فقد تم اغتيال سيد فايز، واتجهت أصابع الاتهام إلى السندي ومساعديه، مما دعا قيادة الإخوان إلى فصل السندي وأعوانه من النظام الخاص ومن الإخوان.

تحالف المفوضون من النظام الخاص مع الشيوخ المفصولين من قبل [محمد الغزالي وسيد سابق وغيرهما] ونظموا عملية انقلاب داخل الإخوان، وهذه هي الطريقة الوحيدة التي يفهمها العسكريون، فاحتلوا بالقوة المركز العام للإخوان المسلمين في القاهرة عام ١٩٥٣، كما احتلوا منزل الأستاذ حسن الهضيبي من أجل إجباره على الاستقالة، ومنعوه من مغادرة الغرفة التي كان يجلس فيها في المنزل، غير أن هذه المؤامرة فشلت عندما جاءت قوات من الإخوان بعد يوم واحد، وأعدت السيطرة على المركز العام.

لقد مضى هذا الحدث الأليم، وأصبح تاريخاً يُكثر من سرده خصوم الدعوة الإسلامية بأسلوبهم الذي يفتقد الأمانة والموضوعية، ولكن هل استفاد الإسلاميون اليوم من النظام الخاص كأول تجربة عسكرية؟.. هل أدركوا أن النكرات يجب أن لا تناط بهم هذه المهام الخطيرة؟ والشيوخ الذين شاركوا في هذه الفتنة قد يكون معهم بعض الحق في خلافهم مع إخوانهم، ولكن أما وجدوا غير القوة سبيلاً إلى حل هذه الخلافات؟. قلة قليلة من الشيوخ وقيادة النظام الخاص كانت تنسق مع الحاكم المستبد جمال عبد الناصر، والبقية كانوا يتقربون إلى الله فيما اجتهدوا واقتنعوا به.

المثال الثاني من سورية:

ذكرت في موضع آخر قصة مجلس قيادة جماعة إسلامية اجتمع لإصدار قرار في مسألة اشتد فيها الخلاف^(١)، وخلال الجلسة اشتبك رئيس الجلسة [نائب المسؤول] في نقاش مع أحد الأعضاء، وبعد ارتفاع صوتيهما وتبادل الاتهامات بينهما، سحب رئيس الجلسة مسدساً كان يخفيه بين ملابسه، وصوبه نحو أخيه يريد قتله، فهب الأعضاء مذعورين وأمسكوا بالمعتدي ومسدسه، وبعضهم حموا بأنفسهم الضحية الذي هرب إلى غرفة مجاورة، وكانت هذه نتيجة الحوار بين

(١) ذكرت هذا المثال والمثال الذي قبله في بحث أسميته: [كيف نحصن الصف الإسلامي من المنافقين؟] وقد نشر على شكل حلقات في مجلة السنة، وسوف يصدر إن شاء الله قريباً في كتاب تحت عنوان: [مساجد الضرار].

الإخوة القادة، ولا أظن أن بعضهم رأى البعض الآخر منذ هذا اللقاء العاصف.

المثال الثالث من مصر:

شهدت فترة السبعينيات صوراً من الإرهاب بين بعض المجموعات الإسلامية في مصر، فجماعة التكفير كانت ترى ردة العضو الذي ينشق عنها، وترى أيضاً تصفية هؤلاء المرتدين، وكان الأعضاء المكلفون ينفذون أوامر القيادة، ويستخدمون السكاكين والمطاوي ضد الأعضاء المعينين، وكانت الصحف المصرية تبالغ في تغطية هذه الأحداث وفي التعليق عليها، والجدير بالذكر أن هذه الاعتداءات شملت الدعاة والجماعات الأخرى مثل ما كان يسمى بجماعة الفنية العسكرية.

وآخر هذه الاعتداءات عملية اختطاف الشيخ الدكتور محمد حسين الذهبي وزير الأوقاف السابق، وأحد كبار علماء الأزهر، ثم قتله بشكل وحشي، والشيخ رحمه الله لم يكن من بين الذين كانت لهم مواقف معادية لهذه الجماعة، ومن جهة أخرى فقد كانت الدولة أول وآخر المستفيدين من قتله، لأنه كان قد أصر - رغم التهديد والوعيد - على رفع دعوة ضد وكيل وزارة الأوقاف السابق بسبب اختلاس مساحة واسعة من أراضي الوقف، والوكيل كان عضواً في عصابة يقف على رأسها الرجل الأول في مصر - السادات -، وتم قتله في الشهر السابع من سنة ١٩٧٧م بينما كان موعد نظر المحكمة في هذه القضية في الشهر العاشر من العام نفسه، فهل استدرجت قوات الأمن القتل إلى تنفيذ هذه الجريمة بغية سقوط

الدعوة تلقائياً؟^(١).

المثال الرابع من أفغانستان:

من أهم أحداث عقد الثمانينيات الحرب التي خاض غمارها المسلمون الأفغان، والتي انتهت برحيل الغزاة، وسقوط النظام الشيوعي في كابل. لقد وقف المسلمون -على مختلف مذاهبهم واتجاهاتهم- مع إخوانهم الأفغان وقفة رجل واحد، وقدموا أعز ما يملكون في سبيل الله.. وكانوا يأملون أن يكون انتصارهم بداية لعودة الخلافة الإسلامية، وأن تكون أفغانستان نواة هذه الدولة العالمية الجديدة، وهذا الأمل جعلهم ينظرون إلى ما يجري على الساحة الأفغانية بعين الخيال والعاطفة، وليس بعين الحقيقة والواقع:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تبدي المساويا

منذ البداية لم يكن هناك أي مبرر لتعدد الأحزاب والجماعات الإسلامية التي تشكل معظمها بعد بداية هذه الحرب، والتي أخذت شكلاً قومياً عرقياً يتدثر بالشعارات الإسلامية التي أصبحت لغة هذه الحرب.

ومنذ البداية أيضاً كانت هذه القبائل تقاتل الشيوعيين الغزاة، وتقاتل فيما بينها في وقت واحد، وكان العالم أجمع ينقل أخبار المعارك الدامية بين هذه القبائل الإسلامية، وكان رد أنصار الجهاد الأفغاني: هذه الأخبار غير صحيحة أو مبالغ

(١) انظر كتابي [الحكم بغير ما أنزل الله وأهل الغلو]: (١/٣٢٩).

فيها وغير ذلك.. وعندما أصبحت هذه القضية مشهورة وواضحة المعالم، تدخل الوسطاء من جميع بلدان العالم، وذكروا الأطراف بكل ما يجب أن يقال عن حرمة قتل المسلم لأخيه المسلم، واستخدموا جميع وسائل التهيب والترغيب، ومع ذلك فقد استمر القتال، لأن القتال أصبح عملاً يومياً عادياً عند الأفغان لا يستطيعون الحياة بدونه، ويصدق فيهم قول الشاعر الجاهلي:

وأحياناً على بكر أخينا إذا ما لم نجد إلا أخانا

وبعد مضي- خمسة عشر عاماً لم يظهر أي بصيص أمل يبشر- بوقف هذا النزيف، فبعد سقوط كابل أصبحت الحرب قاصرة على الفصائل الإسلامية فيها بينها، وكل فصيل يتحالف مع جهة أخرى: كالشيوعيين السابقين، والإسماعيليين، والرافضة، والدول الأجنبية. فقد حصدت هذه الحرب الغاشمة عشرات الآلاف من القتلى، ومثل هذا العدد أو يزيد من الجرحى والمعوقين، ولم يرعوا حرمة للمساجد، فهدموا أشهرها، كما هدموا أهم المعالم التاريخية لمدينة كابل، وتساءل الناس بمرارة: كيف تسلم المساجد ومعالم كابل الإسلامية ولا يعتدى عليها خلال الحكم الشيوعي، وتلقى ما تلقاه من هدم خلال حكم يسمى نفسه إسلامياً؟!.

لقد أصبحنا أضحوكة أمام أعدائنا الذين يقولون بخبث: أهذا هو الحكم الإسلامي الذي تنادون به؟ أما الشعب الأفغاني، فبات يتمنى أي حكم يحقق له الأمن والاستقرار.. ورغم كل ما حدث لا يزال بيننا من يدافع عن الفصائل الأفغانية، ويشبه حربهم بحرب علي بن أبي طالب مع معاوية رضي الله عنه.

المثال الخامس من الجزائر:

بينما كان المسلمون - في بداية التسعينيات - يتطلعون باستنكار إلى صنيع الفصائل الإسلامية الأفغانية، ويأملون أن يثوب هؤلاء الناس إلى رشدهم.. في هذا الوقت بالذات بدأت تظهر بذور فتنة أخرى في الجزائر، وكما يحدث عادة: فقد وقع انقلاب عسكري نفذته طغمة دموية مرتدة من الجنرالات الذين رباهم الفرنسيون خلال عهدهم الاستعماري، وكان هذا الانقلاب يستهدف الجبهة الإسلامية للإنقاذ ومشروعها الإسلامي الذي أيده غالبية الأمة.

انطلق الشباب الجزائري يبحث عن وسيلة لمواجهة هؤلاء المعتدين باللغة التي يستخدمونها ويفهمونها، فبعضهم كون مجموعات تقاثل هنا وهناك دون أن يكون لها ارتباط بأحد، وبعضهم انضم إلى ما يسمى [بالأفغان الجزائريين].

هياً انقلاب العسكريين أجواء مناسبة للمجموعة الأخيرة لنشر غلوها وشدوذاتها، ومن ذلك أنهم يرون رأياً لا دليل عليه عند أهل السنة، ثم يفتون بردة من يخالفهم فيما ذهبوا إليه، وينفذون فيه حكم المرتد إن استطاعوا.

لقد قتلوا أحد المسؤولين في جماعة إسلامية تخالفهم وتنقد أعمالهم، والقتيل -رحمه الله- من الذين يشهد الناس لهم بالخير والاستقامة، وقتلوا القرارات مسؤولين في وزارة الشؤون الدينية، مع أنهم ليسوا من الذين يملكون حق إصدار في هذه الوزارة، وقتلوا نفرًا من أعضاء الجبهة الإسلامية للإنقاذ.

وأصدروا [فرمانات] يهددون فيها كل من يتحدث باسم الجهاد

والمجاهدين، مع أن هذا المتحدث يعني جهة معروفة غير جهتهم لها وجود حقيقي في ساحة الجهاد، لكنهم يرون أن الجهاد لهم وحدهم، والناس توحدوا تحت رايتهم، وفي [فرمان] آخر يهددون اللجنة التنفيذية لقيادة الجبهة في الخارج، وأخيراً فإن أنصارهم يتحدثون عن ردة شيوخ جبهة الإنقاذ..

فماذا يريد أعداء الإسلام غير هذا؟!.

حكم القتل عمداً

من أعظم الكبائر عند الله سبحانه وتعالى أن يقتل المؤمن أخاه المؤمن بغير حق، وقد وردت هذه الكبيرة مقرونة بالشرك بالله في غير ما آية في كتاب الله، يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بِغَيْرِ حَقِّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١]، ويقول: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ﴾ [الأنعام: ١٥١]، إلى أن قال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَُمْ وَصَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١]، ويقول: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ [١٦] يُضْعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدُ فِيهِ مُهَانًا﴾ [الفرقان: ١٦].

وتوعد الحق جل وعلا القاتل، فقال: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا

مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿النساء: ٩٣﴾، وقال: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢].

وثبت في الصحيحين عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء» وقال ﷺ: «لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل رجل مسلم»^(١).

وعن أسامة بن زيد قال: بعثنا رسول الله ﷺ في سرية فصبحنا الحرقات من جهينة فأدركت رجلاً فقال لا إله إلا الله فطعته فوقه في نفسي من ذلك فذكرته للنبي ﷺ. فقال رسول الله ﷺ: «أقال لا إله إلا الله وقتلته؟» قال: قلت يا رسول الله إنما قالها خوفاً من السلاح، قال: «أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا؟» فما زال يكررها حتى تمنيت أني أسلمت يومئذ، قال: فقال سعد [بن أبي وقاص] وأنا والله لا أقتل مسلماً حتى يقتله ذو البطين يعني أسامة. قال: قال رجل: ألم يقل الله: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كَلِمَةً لِلَّهِ﴾ فقال سعد: قد قاتلنا حتى لا تكون فتنة وأنت وأصحابك تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة.

(١) رواه الترمذي، والنسائي، وانظر تخريج الشيخ أحمد محمد شاكر له في عمدة التفسير:

وفي رواية أخرى أن رسول الله ﷺ قال لأسامة: «فكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة؟»^(١).

وفي قصة مماثلة رواها البخاري في صحيحه أن رسول الله ﷺ قال لخالد ابن الوليد: «اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد».

وعن ابن مسعود، أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والتارك لدينه المفارق للجماعة»^(٢).

قال ابن كثير:

(إذا وقع شيء من هذه الثلاث فليس لأحد من آحاد الرعية أن يقتله، وإنما ذلك إلى الإمام ونائبه).

(وكان ابن عباس يرى أن لا توبة للقاتل عمداً المؤمن: روى البخاري عن سعيد بن جبير، قال: آية اختلف فيها أهل الكوفة، فرحلت إلى ابن عباس فسألته عنها، فقال: نزلت هذه الآية ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءُ لَهُ جَهَنَّمُ﴾ هي آخر ما نزل، وما نسخها شيء... وممن ذهب إلى أنه لا توبة له [أي القاتل] من السلف: أبو سلمة بن عبد الرحمن، وعبيد بن عمير، والحسن،

(١) صحيح مسلم، باب تحريم قتل الكافر بعد قوله لا إله إلا الله.

(٢) أخرجه الشيخان.

وقتادة، والضحاك ... غير أن الذي عليه الجمهور من سلف الأمة وخلفها أن القتال له توبة فيما بينه وبين الله عز وجل، فإن تاب وأناب، وخشع وخضع، وعمل عملاً صالحاً، بدل الله سيئاته حسنات^(١).

فليتدبر الشباب [وجميع الذين وقعوا في شباك هؤلاء الغلاة من الشباب] هذه النصوص المحكمة القطعية، وليحذروا من زخرف القول، ومن أباطيل الخوارج الجدد التي يسمونها فتاوى وليست من الفتاوى في شيء، فللفتاوى رجالها المعروفون بأسئلتهم الصريحة وبتاريخهم العلمي الناصع وشهادة الأمة لهم، وليسارع من عمر الإيمان قلبه بالتوبة النصوح قبل أن يخسر الدنيا والآخرة.

(١) عمدة التفسير للحافظ ابن كثير، اختصار وتحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر: (٣ / ٢٣٥)، ومن شاء التوسع فليراجع أدلة الجمهور من سلف الأمة على توبة القتال عمداً في هذا الكتاب وفي غيره من كتب التفسير عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾ [الزمر: ٥٣].

الفصل الثاني

الإرهاب الفكري

الإرهاب الفكري

الإرهاب الفكري: هو كل إرهاب لا يصل إلى حد القتل الجسدي، غير أنه أفدح منه خطراً، وأشدّ ضرراً، فكم إنسان قتله إخوانه اجتماعياً يتمنى الموت على الحياة؟، وكم قتيل نفسي يتمنى أهله وأصدقائه موته؟، ونقول يتمنى أهله وأصدقائه لأن هذا الضحية لم يعد عنده فارق كبير بين الموت والحياة.

لا أظن أن أحداً منا لا يشعر بهذا الخطر الذي يهدده ويلاحقه في حله وترحاله، فما من جلسة تجمع أشتاتاً من الإخوة إلا ويشعر بعض المشاركين فيها بهذا الإحراج، فهم يريدون أن يفصحوا عن رأي يرونه، لكنهم يتراجعون، ويغيرون مجرى الحديث، أو يلوذون بالصمت خوفاً من غضب الآخرين ونقمتهم، مع أن الذي كانوا سيقولونه ليس فيه مخالفة للشرع أو للعقل أو العرف الصحيح.

قلة قليلة من الناس لا تخشى العواصف الهوجاء، ولا يزيدها هجوم المبطلين وظلمهم إلا عطاءً وإبداعاً، لقد شغلتهم طاعة الله عن الالتفات إلى الشائعات، وبيان ما فيها من تلفيق وافتراءات، ومن لطف الله بهذه الأمة، وجود هذا الصنف من الرجال في جميع الأعصار والأمصار، وهم المعنيون بالحديث الآتي:

عن ثوبان، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على

الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك»^(١).

ومن أفدح المصائب أن يتخذ عامة الناس من الجهلة والغوغاء موقفاً من المواقف في ظروف عاطفية تمر بها الأمة، وخلال بضع ساعات يتحول هذا الموقف إلى تيار جارف، ومن يخالفه يتهم بالمروق والخيانة، ويصبح منبوذاً حتى بين أهله وأصدقائه وأهل الحي الذي يقطنه، وكم سمعنا ورأينا علماء كبار ومفكرين مشهورين يشيدون بهذا الموقف العام في ندواتهم وفيما يكتبون من أبحاث ومقالات مع أنهم في قرارة أنفسهم يعتقدون بطلانه وتفاهته، ويقولون في خلواتهم لصفوة الأصدقاء: لقد حملنا الإرهاب على قول ما لا نعتقد!!

وسوف ندلل على خطورة الإرهاب الفكري من خلال عرض الأمثلة الآتية:

الأول: منذ بداية الجهاد الأفغاني^(٢) ونحن نسمع أخبار المعارك بين معظم الفصائل المجاهدة، ففي عدوان واحد كان عدد الضحايا مئات من الركع السجود يذبحون في صلاة الجمعة أو العيدين^(٣) كما تذبج الخراف، وكان القاتل والمقتول من المنتمين إلى فصائل إسلامية مجاهدة، ومن الجدير بالذكر أنه من المستحيل كتمان مثل هذه الأخبار لأن وكالات الأنباء العالمية منتشرة في

(١) أخرجه البخاري في كتاب المناقب، ومسلم في كتاب الإمامة بألفاظ مختلفة، وهذا اللفظ لمسلم.

(٢) انظر (ص ٧٣).

(٣) تكررت هذه الاعتداءات في صلاة الجمع والأعياد.

ساحات المعارك، ولهذا فقد كانت تنقل هذه الأخبار المأساوية بالأرقام، وتسمي الفصائل المتقاتلة، وأسماء القادة، والمشهورين من الضحايا.

نحن وحدنا كان إخواننا يريدون منا أن نتحدث عن كرامات الأفغان وانتصاراتهم، دون أية إشارة إلى بقية الأخبار، ومن يكتب محذراً ناصحاً يصبح هدفاً لحملة من التشويه والتشهير، فتارة يقولون: إنه يردد أكاذيب أجهزة إعلام الدول الكافرة، وكان من الواجب عليه الاكتفاء بسماع أقوال إخوانه المرابطين في الثغور.

وتارة أخرى يقولون: إنه عدو للجهاد، ويشيع مقالة السوء عن مجاهدين أبرار لا يستحق أن يكون ذرة من الغبار المتراكم على ملابسهم، بل على أحذيتهم.

إن هؤلاء الذين كانوا يمارسون الإرهاب الفكري ضد إخوانهم ينطلقون من اجتهاد مفاده أن إشاعة هذه الأخبار التي لا ينكرون صحتها ينقّر المسلمين من الجهاد الأفغاني.

والآخرون يقولون: نحن لا نتولى إشاعة هذه الأخبار، لأنها مشاعة بالتواتر، ولا نريد أن نكذب عندما يسألنا سائل عن رأينا وموقفنا، ومن جهة أخرى فإننا نرى أن تأخذ هذه القضية حجمها الصحيح، ويتخذ العلماء والدعاة موقفاً قوياً من الذين لا يتقون الله في دماء إخوانهم.

وسواء صح هذا الاجتهاد أو ذلك، فلماذا يشكك البعض بالنوايا، ويخوضون في أعراض إخوانهم، بل لماذا يدافعون بالباطل عن القتلة، ويستخدمون سلاح الإرهاب ضد مجتهدين يرون أن اجتهادهم مدعوم بالأدلة الشرعية؟!.

الثاني: أيد معظم الإسلاميين في حرب الخليج الثانية زعيم حزب البعث، رغم اطلاعهم التام على مبادئ حزبه العلماني المعادي للإسلام والمسلمين، ورغم إحاطتهم الشاملة بأهم الجرائم التي ارتكبتها ضد المسلمين في العراق عامة، وضد إخوان لهم بخاصة.

قال المؤيدون: يغفر الله له ماضيه بعد أن تاب وعاد إلى كنف ربه.. وأضافوا: إن احتلال الكويت خطوة أولى في طريق استرداد فلسطين، وتوحيد الأمة العربية، وقهر إرادة أمريكا وريبتها إسرائيل، ولن تستعيد أمتنا مكانتها إلا إذا قادها رجل قوي.

فئة أخرى من الإسلاميين أيدت الاستعانة بالقوات الأمريكية، وأفتت بشرعية دخول هذه القوات وإقامتها في جزيرة العرب التي لا يجتمع فيها دينان، وتذكرت هذه الفئة أن حاكم بغداد كافر مرتد، وما كنا نسمع مثل هذا الكلام رغم الحاجة إليه.

لست في صدد ترجيح موقف على آخر، ولكنني في صدد الإشارة إلى بشاعة الاتهامات التي تبادلها الطرفان، ولا يزال هذا الموقف يلقي بظلاله القاتمة المؤلمة، وجددير بالذكر أنه لم يسلم من هذا الإرهاب الفكري فئة ثالثة استنكرت احتلال الكويت، كما استنكرت الاستعانة بالقوات الأمريكية.

الثالث: أمهد لهذا المثال بما يلي:

- كلنا مؤمنون بأن المؤتمرات والمفاوضات السياسية ليست أكثر من شكل

من أشكال استسلام الظالمين [الذين سلطهم الله على رقابنا] للعدو الصهيوني.

- وكلنا مؤمنون بوعد الله لنا بالنصر على اليهود، والطريق الوحيد لإنجاز هذا الوعد هو الجهاد في سبيل الله، والجهاد يحتاج إلى إعداد.

بعد هذا التمهيد الذي لا بد منه بسبب حساسية الموضوع أقول:

كان بعضنا يعتقد أن قيادة منظمة التحرير هي المستفيد الوحيد من الانتفاضة، لأنها أفلست وفقدت جميع الأوراق التي تمكنها من المناورة، وكان هذا البعض يتوقع منذ بداية الانتفاضة أن تقبل المنظمة ببعض الفتات، ثم تتعاون مع اليهود ضد الإسلاميين الذين كان لهم دور لا ينكر في الانتفاضة.

كان هذا البعض لا يقلل من بطولة وشجاعة الذين يقاومون قوات الاحتلال بالحجارة، فلا يخيفهم بطش العدو ولا ترهبهم سجونهم، لكنه كان يتساءل في جلسات مغلقة: وماذا بعد؟ وكيف يردد الناس في الضفة الغربية وغزة قول الشاعر:

في القدس قد نطق الحجر لا مؤتمر، لا مؤتمر؟

ألا يدري هؤلاء المنشدون بُعد الهوة الساحقة التي تفصل الواقع المؤلم عن بلاغة الشاعر وعواطفه؟.

قلت: كانت هذه التساؤلات تردد في جلسات مغلقة، لأن من يبوح بها علناً سيتعرض لاتهامات كثيرة، أقلها: عداوة الانتفاضة، وأشدّها: العمالة للصهيونية.

وبعد أن ركبت المنظمة موجة الانتفاضة، وقبلت الفتات، وقام لها كيان

مزيف سموه: الحكم الذاتي، وبدأ قادة هذا الكيان يتعاونون مع اليهود وأشباه اليهود ضد الإسلاميين. . فقد عاد هذا البعض ليطلب إخوانه في فلسطين المحتلة بضرورة تقويم الفترة الماضية من مسيرتهم، والاستفادة من آراء أهل الخبرة والمعرفة، ومعالجة تعدد الآراء واختلاف المواقف علاجاً صحيحاً والحذر من تسرع المتسرعين، وميوعة بعض السياسيين الذين يبحثون عن أنصاف الحلول وأرباعها. . ثم الاتفاق بعد ذلك كله على خطة جديدة تأخذ في حسابها كيد اليهود وخبثهم، ودناءة المستسلمين لليهود.. فهل يجد هذا القول آذاناً صاغية؟ وهل يُفَوِّتُ إخواننا الفرصة على كل من يراهن على شق الصف الإسلامي، وضربه من الداخل؟ نرجو ذلك.

قال أحد الإخوة الذين قرأوا هذه الأسطر قبل نشرها: لقد ترك الإرهاب بصماته على ما كتبته، ولهذا جاء اختصارك لهذا المقال مخللاً.

الرابع: عجبت أشد العجب من الذين يدافعون عن العلمانيين المارقين، ويتعاملون معهم برحابة صدر، رغم تحديهم لعقائد المسلمين، ووقاحتهم في إبداء آراء لا خلاف بين المسلمين على كفر وردة من يعتقدوها.

هؤلاء الذين يدافعون عن العلمانيين هم أنفسهم الذين تضيق صدورهم، وينفرون من إخوانهم الذين يختلفون معهم في الاجتهادات، وقد تحمل هذه الاجتهادات شيئاً من الشذوذ.. فإذا أراد المخالف الزواج نشطوا في إقناع الناس بعدم تزويجه، وإذا تقدم إلى مؤسسة من أجل الحصول على وظيفة فيها، سعوا

عند المسؤولين لحرمانه منها، وقد يكررون المحاولة في مؤسسة ثانية.. وفي الحي الذي يسكنه يحرمونه حتى من حقوق المسلم على المسلم، فلا يسلمون عليه إذا رأوه، ولا يعودونه إذا مرض.

مرة أخرى أقول:

لا أدري كيف اتسعت قلوب هؤلاء الإخوة للعلمانيين، وللنصارى، وضاقت بإخوانهم؟ ولا أدري أيضاً كيف يكيلون بمكيالين، ففي تبرير موقفهم من العلمانيين يقولون: دعه يستخدم حريته في التعبير عن رأيه، ولا تمارس عليه أي نوع من أنواع الإرهاب، ثم قارعه الحججة بالحجة في جو [ديموقراطي].. فلماذا حرموا إخوانهم من هذه المعاملة الحسنة؟.

الخامس: علماء الأمة الثقات في جميع مراحل تاريخنا الإسلامي كانوا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويواجهون الظالمين بظلمهم والمبتدعين ببدعهم لا تأخذهم في الله لومة لائم، ونحن جميعاً نعتز بهم، ونتخذهم أسوة حسنة لنا.

إلا أن ناساً من المنسويين إلى الدعوة، ومن المعجبين بشجاعة أحمد بن حنبل، وبموقفه التاريخي المعروف من المأمون والمعتصم والواثق، ومن بدعة أهل الاعتزال.. هؤلاء الناس يهاجمون إخواناً لهم لأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وفق ضوابط أهل السنة، ويستخدمون في هجومهم ألفاظاً نابية، وتهماً شتى لا يستطيعون إقامة أدلة عليها، ومما ابتكروه من أوصاف ألصقوها بإخوانهم: [دعاة التهيج]، فهذا من دعاة التهيج، وذاك لا علاقة له

بدعاة التهيج، ولم يسبقهم أحد إلى هذه الاصطلاحات التي أصبحت عندهم وكأنها من علم الجرح والتعديل، وإذا لم يؤد هذا المصطلح دوره المطلوب رموا المخالف بالابتداع وفساد الاعتقاد أو بالزندقة والإلحاد.

السادس: وهناك طائفة ترفع شعار الدفاع عن الدعاة والعلماء، وتحذر من الذين ينهشون لحومهم لأنها مسمومة، ومما لا ريب فيه أن العلماء والدعاة العاملين هم صفوة الأمة ولا يجوز النيل من هذه الصفوة وتحقيرها، غير أن الذين يرفعون هذا الشعار هم الذين يهاجمون الدعاة والعلماء ثم يزعمون أنهم بصنيعهم هذا يحذرون من الذين يطعنون الأمة في أفضل رجالها وقادتها، ومن جهة أخرى فالعلماء عند هؤلاء الناس قاصرون على قادة أحزابهم، وهذا يعني أن المسألة عندهم لا تعدو أن تكون صراعاً حزبياً أو مذهبياً، وقصارى القول، فإن الشعار خلاف المضمون^(١).

لعلنا بهذه الأمثلة التي اخترناها نكون قد قدمنا صورة كافية عن الإرهاب الفكري داخل الصف الإسلامي، وبيننا حجم المخاطر الناجمة عنه.

(١) من شاء مزيداً من التفصيل لمضمون المثالين الخامس والسادس فليراجع كتابي: [العلماء وأمانة الكلمة].

الفصل الثالث

الدوافع والأسباب

الدوافع والأسباب

نحن نتسبب إلى أمة كانت في جاهليتها تتغنى بقول شاعرها:

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم

فلا بد في المجتمع الجاهلي من السلاح، لأن الحاجة إليه كالحاجة إلى الطعام والشراب، ولا بد أيضاً من الحروب حتى لا يكون الفرد مظلوماً ومستعبداً، ولهذا فقد كانت الحرب تنشب بين قبيلة وأخرى لأتفه الأسباب، وكان أفراد القبيلة ملزمين بخوض غمار أي حرب تكون قبيلتهم طرفاً فيها: (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً).

تغيرت الأحوال والأعراف والعادات عندما أنعم الله ﷺ على البشرية برسالة الإسلام، وتوحدت القبائل تحت راية لا إله إلا الله محمد رسول الله، ولم يعد أحد قادراً على ظلم أحد وإرهابه، وأصبح الناس سواسية كأسنان المشط.

ولكن بعض العادات الجاهلية بدأت رويداً رويداً تأخذ طريقها إلى نفوس الحكام بعد عصر الخلفاء الراشدين، ففي سنة إحدى وستين من الهجرة قتل المجرمون الظالمون ابن بنت رسول الله [الحسين] -ﷺ-، وفي سنة ثلاث وسبعين قتل الحجاج بن يوسف الثقفي قبحه الله وأخزاه^(١) الصحابي الجليل عبد الله بن الزبير، وقتل معه عدداً من الصحابة والتابعين، واعتدى على حرمة

(١) هذه عبارة ابن كثير في تاريخه عندما تحدث عن الحجاج ومقتل عبد الله بن الزبير.

بيت الله الحرام فرمى الكعبة بالمنجنيق، وفي سنة خمس وسبعين دخل الكوفة، فبطش بأهلها، وكان آخر من قتل التابعي سعيد بن جبير رحمه الله.

وتناول العهد على سياسة استخدام الحكام الظالمين لوسائل القهر والإرهاب حتى صرنا نسمع من أفواه شيوخ السلاطين حقوقاً مزعومة لذيل بغلة السلطان، وكفى بذلك ذلاً وهواناً.

وهكذا فقد خضع الناس في بلادنا سنين طويلة لأنظمة طاغية مستبدة: تكبت أفكارهم، وتصادر حرياتهم، وتقتل روح الإبداع في نفوسهم، فالفرد في ظل هذا الإرهاب يقول ما يرضي الطغاة الجدد، ويعمل كل ما يدينه منهم أو من بطانتهم، ومن أراد الصدق بالحق وإنكار المنكر، فلا بد أن يكون مستعداً لدفع الثمن^(١).

انتقلت هذه العدوى إلى الساحة الإسلامية، وقديماً قيل: (الإنسان ابن بيئته)، فعندما يضعف الإنسان وتخبو جذوة الإيمان في قلبه يتأثر بالأجواء المحيطة به، ويقلد الأقوياء المتنفذين، وعلى نقيض ذلك، الإنسان إن كان عالماً عاملاً، فإنه يؤثر فيمن حوله ويصبغهم بأفكاره التي يدعو لها.. وقد ذكرنا في الحلقة الماضية من الشواهد الدالة على وجود الإرهاب بكافة أشكاله داخل الصف الإسلامي ما يغني عن أية زيادة.

إن الذين عايشوا مسيرة العمل الإسلامي يدركون مدى تأثير معظم الإخوة

(١) في تاريخنا أمثلة على القهر والإرهاب، وأمثلة أكثر على المساواة والتسامح والعدل.

بطبائع الناس في بلدانهم، ومن الأمثلة على ذلك:

١ - للأحزاب السياسية غير الإسلامية طريقة معينة في انتخاب قاداتها وممثليها، وفي ترتيب المكائد وتصفية الخصوم عن طريق التحالفات والمحاور والانقلابات، ومن المؤسف أن كثيراً من الإسلاميين قد تأثروا بهذه الطريقة.

٢ - يرى السياسيون في بلد معين أنهم أكثر كفاءة من أمثالهم في بقية البلدان العربية، وغيرهم يجب أن يكون تابعاً لهم، راضياً بقيادتهم، ويحمل الإسلاميون في هذا البلد مثل هذه العقلية.

٣ - أكثر البلدان استبداداً وطغياناً وتنكياً ظهرت فيها حركات إسلامية لا تجيد الحديث إلا بلغة الحديد والنار، ولو قُدرَ لها استلام الحكم لارتكبت من الجرائم أضعاف ما ارتكبه الطغاة الذين سبقوهم، وسوف ينفذون بأغلب العلماء والدعاة حكم الردة.

٤ - في عالمنا العربي مشكلة اسمها مؤسسة الرجل الواحد الذي يقبض الأمور بيد من حديد، ومؤسسة الرجل الواحد ترتدي أحياناً لباس الديمقراطية، وباسم هذه الديمقراطية المنكوبة يحكم الرجل الواحد، وكذلك حال الإسلاميين.

أجاد الأستاذ سيد قطب عندما تحدث عن التغيير الجذري الشامل الذي أحدثه الإسلام في حياة وعادات وطبائع المجتمع العربي في الجزيرة العربية، قال رحمه الله:

(لقد كان الرجل حين يدخل في الإسلام يخلع على عتبته كل ماضيه في

الجاهلية، كان يشعر في اللحظة التي يجيء فيها إلى الإسلام أنه يبدأ عهداً جديداً، منفصلاً كل الانفصال عن حياته التي عاشها في الجاهلية. وكان يقف من كل ما عهدته في جاهليته موقف المستريب الشاك الحذر المتخوف، الذي يحس أن كل هذا رجس لا يصلح للإسلام! وبهذا الإحساس كان يتلقى هدي الإسلام الجديد، فإذا غلبته نفسه مرة، وإذا اجتذبت عاداته مرة، وإذا ضعف عن تكاليف الإسلام مرة. شعر في الحال بالآثم والخطيئة، وأدرك في قرارة نفسه أنه في حاجة إلى التطهر مما وقع فيه، وعاد يحاول من جديد أن يكون على وفق الهدى القرآني^(١).

ولينظر من شاء في قصة الصحابي عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول مع أبيه الذي كان رمزاً من رموز النفاق، فقد وقف الابن ضد أبيه في غزوة بني المصطلق وفي غيرها، وكان في الجاهلية من أبر الناس به.. ولينظر من شاء أيضاً إلى قصة الصحابي الطفيل بن عمرو الدوسي مع قومه، وغير ذلك كثير، وكان رسول الله ﷺ إذا عيّر صحابي أخاه بأمه أو بنسبه قال له: «إنك امرؤ فيك جاهلية»^(٢)، وإذا ذُكر له أمر من الأمور المستقبحة قال: (هذا من عمل الجاهلية)، وقد جمع الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب رحمه الله المسائل التي خالف رسول الله ﷺ فيها ما عليه أهل الجاهلية الكتابيين والأميين في رسالة، فكان

(١) معالم في الطريق: جيل قرآني فريد.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الإيمان.

تعدادها مائة وعشرين مسألة^(١)، وفي جميع الحالات كان المخطئ يسارع إلى التوبة والاستغفار، فلا يجادل ولا يعاند أو يستكبر.

روى ابن جرير عن أنس بن مالك قال:

(بينما أنا أدير الكأس على أبي طلحة وأبي عبيدة بن الجراح وأبي دجاجة ومعاذ بن جبل وسهيل بن بيضاء، حتى مالت رؤوسهم من خليط بسر وتمر، فسمعت منادياً ينادي: ألا إن الخمر قد حرمت، قال: فما دخل علينا داخل ولا خرج منا خارج حتى أهرقنا الشراب، وكسرنا القلال، وتوضأ بعضنا واغتسل بعضنا، وأصبنا من طيب أم سليم، ثم خرجنا إلى المسجد، فإذا رسول الله ﷺ يقرأ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ [المائدة: ٩٠] إلى قوله: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ ﴿٩١﴾ [المائدة].

فقال رجل: يا رسول الله، فما ترى فيمن مات وهو يشربها؟ فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعَمُوا﴾ [المائدة: ٩٣] الآية، وقال رجل لأنس بن مالك: أنت سمعته من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم، أو حدثني من لم يكذب، ما كنا نكذب ولا ندرى ما الكذب^(٢).

(١) مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب، القسم الأول - العقيدة والآراء الإسلامية، ص: (٣٣٣).

(٢) الطبري: (١٢٥٢٧)، وإسناده صحيح، وقد ذكره الهيثمي في الزوائد: (٥٢/٥) وقال: رواه البزار، ورجاله ثقات. ولهذا الحديث شاهد في الصحيحين. [عن: عمدة التفسير للحافظ ابن كثير، اختصار =

والشاهد في هذا الحديث:

١ - مسارعة الصحابة إلى الامتثال لأمر الله ورسوله مع أن الخمر من العادات التي يصعب أن يتخلى عنها من ابتلي بها ناهيك عن عمق تأثيرها في المجتمع الجاهلي.

٢ - قول أنس بن مالك: ما كنا نكذب ولا ندري ما الكذب، وجيل هذه صفاته لا يمكن أن يقدم قول طائفة أو أهل بلد على قول الله ورسوله، وكل جيل يتأسى بالرعيّل الأول لا بد أن يأنف من الإرهاب والاستبداد والإجرام لاسيما إذا كان المستهدفون إخواناً له يختلف معهم في الآراء والمواقف.

الباب الثالث

أزمة أخلاق

ويشمل الفصول التالية:

الفصل الأول: المستعمرون والمستغربون وضعوا أساس هذه الأزمة.

الفصل الثاني: آثار الأزمة.

الفصل الثالث: صور من أخلاق رسول الله ﷺ قبل البعثة وبعدها.

الفصل الرابع: مكانة الأخلاق في بيان جعفر.

الفصل الخامس: تزكية النفوس.

الفصل الأول

المستعمرون والمستغربون

وضعوا أساس هذه الأزمة

- إنها أزمة.

- المستعمرون وضعوا أساس هذه الأزمة.

- المستغربون على خطأ أساتذتهم.

- علمانيون أكثر من العلمانية.

إنها أزمة^(١)

ليس من شيء في عالمنا المعاصر أكثر من الأزمات التي لا يخلو منها بلد من البلدان، أو مدينة من المدن، وأكاد أقول: لا تخلو منها معظم بيوت المسلمين. فكثيراً ما نسمع أن هناك أزمة في الحكم في هذا البلد أو ذاك، ويعود نشوء هذه الأزمة لأسباب مختلفة:

منها: حدوث اختلاف قوي بين الحزبين اللذين يتقاسمان السلطة - وما أكثر هذا النوع من الخلافات - ، ويفتقد كلٌّ من هذين الحزبين الأكثرية في المجلس التشريعي - البرلمان - التي تمكنه من الانفراد في الحكم.

ومنها: أن يصل العسكريون إلى الحكم إثر انقلاب عسكري ييكون خيوطة في الظلام، ثم يذعن الناس لسياسة الأمر الواقع، ويتظنون استقرار الحكم الجديد، وتنفيذ قاداته للوعود المعسولة التي وعدوا الأمة بها بعد نجاح انقلابهم على النظام المهترئ العميل الذي أطاحوا به [على حد زعمهم]، ولكن الناس يفاجئون بانقلاب جديد على هذا الانقلاب، قد يكون صامتاً، وقد ينقسم الجيش إلى أجنحة تتقاتل فيما بينها، وربما تجاوزت شظايا ونيران هذه المعارك الشكنات العسكرية لتصل إلى الأميين من المدنيين في المنازل والأسواق والشوارع العامة.

(١) في صياغة مطلع هذه المحاضرة استفدت من كتاب [إلى الإسلام من جديد] للشيخ أبي الحسن الندوي ص: (٩٥).

وقصارى القول: إن الأسباب تتعدد بتعدد الأزمات التي لا نهاية لها، ولا بد أن ينعكس أثر هذه الأزمات على شؤون الإدارة والحكم، فيتغيب كبار المسؤولين عن مكاتبهم في الوزارات والمؤسسات العامة، وتتعطل مصالح العباد، ويستولي الهلع والقلق على نفوس الناس، وتكثر الأسئلة والهمسات عما ستنجلي عنه هذه الأزمة.. ومن المتصر.. وما هي السياسة التي سيتبعها.. وهل في انتصار هذه الجهة أو تلك أمل في بتر دابر الفساد والمفسدين؟!..

غير أن المواطنين يصابون بخيبة أمل عندما يستقر الوضع لصالح جهة من الجهات المتصارعة، لأن الفساد على مختلف أشكاله يستمر، والقهر والاستبداد يزداد سوءاً، والأمل من التغيير يتبدد، وترسخ قناعة أهل الخير والصالح بأن هذا وذاك سواء لأنهم شركاء في الحكم والفكر، وما بينهم من خلافات لا تعدو المصالح الشخصية.. وأن كل من حادّ الله ورسوله واتبع سبيل الشيطان لا خير فيه، ولو رفع راية العدل والإنصاف.

وتطرق مسامعنا بين الحين والآخر أخبار الأزمات الاقتصادية المتتالية، لاسيما ونحن نعيش في عصر هيمن فيه طاغوت ظالم اسمه [صندوق النقد الدولي]، فعندما يضغط هذا الصندوق الربوي على بلد من بلدان العالم تأخر في وفاء الالتزامات المطلوبة منه، ويأمره برفع الدعم عن بعض المواد الغذائية الضرورية، لا بد أن يستجيب البلد للأمر المطلوب منه، ولو حاول أن يتهرب منه بعض الوقت، والاستجابة هذه يتحمل وزرها الفقراء الذين كان دخلهم يكاد لا

يسد حاجاتهم الضرورية قبل رفع الأسعار، فكيف يكون حالهم بعدها؟!.

ولما كان هؤلاء الفقراء يمثلون الغالبية العظمى من أبناء هذا البلد، فإنهم لا يجدون وسيلة يعبرون فيها عن مشاعرهم عندما يقترب منهم شبح المجاعة إلا الخروج إلى الشوارع العامة متظاهرين مستنكرين، وقد تتحول المظاهرات إلى قتال دموي عندما تأمر السلطة رجال أمنها وقوات جيشها بقمع هذا الشغب (!!).. ولا بد أن تكون الغلبة لقوات النظام المدربة على مثل هذه الأعمال، لاسيما وأنها مزودة بالأوامر التي تسمح لها بقتل وجرح وأسر كل من لا يفر هارباً من أمامها.

يتفرق المتظاهرون، وكل منهم له شأن، فمنهم من يقتل وينشغل أهله بأمور دفنه، ومنهم من تعج بهم المستشفيات ليعالجوا من الإصابات التي تعرضوا لها، ومنهم من يكون مصيره السجن ويوجه إليه ما يشاء المحقق من التهم، والبقية الباقية يعودون إلى منازلهم التي خرجوا منها يشكون أزمة اسمها "الخبز" ورجعوا إليها بأزمة أخرى اسمها القهر والاستعباد والإذلال.

وهناك أزمتان بين السلطة والنقابات المهنية لا ينقطع الحديث عنها، فقد تطالب نقابة من النقابات برفع أجور العمال المتسبين إليها ليكون دخلهم متناسباً مع ارتفاع الأسعار. وقد ترفض السلطة هذا الطلب لأن الميزانية لا تتحمل مثل هذه الزيادة، فلا تجد النقابة بدأً من الإضراب الذي قد يؤدي إلى توقف إنتاج الشركات والمصانع، أو إلى تعطيل حركة السير وامتلاء الشوارع بالقمامة وبالروائح الكريهة التي تنبعث منها.. ثم تبدأ المفاوضات من جديد بين السلطة

والنقابة للبحث عن مخرج من هذه الأزمة.

أجل.. إن الأزمات التي يهتم بها الناس - كل الناس - كثيرة ومتنوعة، لكن أزمة واحدة لا تجد نصيبها من العناية والاهتمام والدراسة مع أنها أزمة الأزمات، ومشكلة المشاكل، وعنوان رقي الأمم أو هلاكها واندهارها أمام أعدائها.. إنها أزمة الأخلاق!!، وما من أزمة أخرى إلا ولها بها صلة، فالسلطة الملتزمة بالعدل وقواعد الأخلاق تجوع إذا جاع الناس، وتشبع إذا شبعوا، وهكذا كان شأن عمر بن الخطاب وغيره من الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم:

إن جاع في شدة قوم شركتهمُ في الجوع أو تنجلي عنها غواشيها

جوع الخليفة والدنيا بقبضته في الزهد منزلة سبحان موليتها

إنني أفهم لماذا يثور الناس ويقاتلون من أجل خبز يومهم، لكنني لا أفهم لماذا لا يثورون ويقاتلون من أجل دينهم الذي يعتدى عليه، ومن أجل أخلاقهم التي تنتهك وأعراضهم التي تهتك.. فهل الطعام والشراب أهم عند الناس من الدين والأخلاق؟!.

وأفهم كذلك لماذا يعرف الخاصة والعامة، والصغير والكبير من غير استثناء أن هناك أزمة اسمها: إضراب عمال التنظيفات من أجل زيادة أجورهم، لكنني لا أفهم لماذا لا يعرف هؤلاء جميعاً بأن هناك أزمة اسمها أزمة أخلاق، ولماذا لا تكون إثارة الناس لهذه الأزمة بحجم إثارة عمال التنظيفات لقضيتهم؟!.

تلجأ السلطات أحياناً إلى إثارة أزمة لها علاقة قوية بالدين والأخلاق، ومن الأمثلة على ذلك مشكلة المخدرات التي تجتاح العالم كله، فتعقد من أجلها المؤتمرات والندوات، وقد يستدعي علماء ودعاة ليدلوا بدلوهم، وليبينوا حرمة تعاطي هذه السموم.. ثم يخرج المؤتمر بقرارات من أهمها تشديد العقوبة على كل من يتاجر بالمخدرات، لكن هذه القرارات تبقى حبراً على ورق لأن المطلوب منهم تطبيقها هم المدمنون على المخدرات، وهم الذين يرعون العصابات الخطيرة التي تتاجر بها، ولديهم حيل ووسائل كثيرة يبررون من خلالها مواقفهم، ويلقون باللائمة على غيرهم.. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن السلطات لا تكافح المخدرات لأسباب دينية وأخلاقية، وإنما تكافحها لما لها من أثر مدمر على اقتصاد بلدانهم، ولأن الإدمان مرتبط أشد الارتباط بالجريمة، وازدياد الجرائم يهدد أمن النظام واستقراره.. ولولا هذان السببان لبقيت المخدرات مسألة شخصية مثلها كمثّل الخمر التي تبيحها القوانين المعمول بها.

ومن الأدلة على ذلك أن بعض المسؤولين التنفيذيين عن مكافحة المخدرات يقولون في الندوات العامة:

إن الذين يداومون على ارتياد المساجد لا يتعاطون المخدرات.. وإن معظم التائبين إنما ترتبط توبتهم بأسباب دينية.. ثم يخطمون حديثهم بالدعوة إلى نشر الوعي الديني بين الشباب.

ثم نسمع فيما بعد أن هؤلاء المسؤولين الصغار قد أبعدوا عن وظائفهم، مع أن

بعضهم ليس متديناً، وقال الذي قاله من منطلق الأرقام والإحصائيات التي بحوزته، وهو لا يدري أنه قد تجاوز الحدود المسموح بها، وليس من حقه أبداً التوصية بنشر- الوعي الديني لأن المسؤولين الكبار لو خيروا بين انتشار المخدرات أو الوعي الديني لاختاروا الأولى على الثانية التي تهدد فسادهم واستمرارهم في السلطة.

إن أزمة الأخلاق التي تعاضم أمرها، واستفحل شرها يوماً بعد يوم، وعاماً بعد عام آخر تثير أمام الباحثين السؤال الآتي:

هناك صحوة إسلامية يلمسها كل إنسان أينما اتجه: في المساجد، والمدارس، والمصانع، والشوارع العامة، ورغم كل القيود التي تعترضها فإنها والحمد لله تزداد رسوخاً وصلابة وكثرة.

وهناك أيضاً فساد عريض على المستويين الفردي والجماعي.. فكيف نجتمع بين هذا وذاك؟!.

وقبل الإجابة على هذا السؤال فإنني أهيب بإخواني الدعاة أن يتجنبوا النظرة السطحية القاصرة التي لا يرى فيها بعض الصالحين إلا من كانوا على شاكلتهم من أهل الفضل والتدين.. يرونهم في المساجد التي تزدهم بالمصلين، ويرونهم أيضاً في المنتديات العامة والخاصة فيظنون أن الأمة بخير.. لكنهم لو أتيتهم وهم في دوائر أخرى مخالفة لدائرهم الخاصة لثم الكهم العجب والذهول، وظنوا أنهم في بلد آخر غير بلدهم الذي يعرفونه، ولا بد من التذكير أن الدعاة لن يكتب لهم النجاح وتحقيق الأهداف إلا إذا أحاطوا بعلم مجتمعاتهم.

ومن جهة أخرى فإن انتشار الوعي الديني قد تحقق بقدره الله سبحانه وتعالى، ثم بجهود بعض الصالحين من الدعاة الذين كتب الله لهم القبول عند الناس.. وإمكانات هؤلاء الدعاة بسيطة وغير منظمة، أما إمكانات أهل البغي والفساد فغير محدودة من قوة اتساعها، ففي الإطار الداخلي يتبنى مشرعوهم جهات رسمية لها بنود في ميزانية الدولة، وفي الإطار الخارجي تقف الدول الاستعمارية بتأريضها البغيض وراء مخطط إبعاد المسلمين عن دينهم لأنه مصدر قوتهم، ومبعث عزهم، ولا سبيل إلى تحقيق هذا المخطط إلا بنشر الفساد وإشاعة الظلم والاستعباد.

ومن جهة ثالثة فنحن لا نواجه أزمة بدأت آثارها تبرز منذ أعوام قليلة، ولا نتحدث عن المعاصي الفردية التي يتستر المذنبون بفعلها لأن مثل هذه الأفعال لم يخل منها أي عصر من العصور بما في ذلك عصر الرعيل الأول.

متى بدأت هذه الأزمة؟.. ومن الذي خطط لها وكيف؟.. وما هو مدى تأثيرها على الدعاة؟.. وكيف تكون البداية التي ينطلق منها المصلحون، وبمن يقتدون؟! هذا ما سأحاول الإجابة عليه في هذا البحث، ومن الله وحده نستمد العون والتوفيق.

المستعمرون وضعوا أساس هذه الأزمة

كان للإرساليات التبشيرية في بلدان العالم الإسلامي دور في اقتلاع العقيدة الإسلامية من قلوب ونفوس من وقع في شراكمهم من أبناء أمتنا، ومن أجل ذلك كانوا يعقدون المؤتمرات التي يستعرضون فيها أنشطتهم، ويضعون الحلول المناسبة للمشكلات التي تواجههم، وفي أحد أهم مؤتمراتهم تدارسوا أسباب فشلهم في تنصير المسلمين رغم ضخامة الإمكانيات التي يضعونها في هذا السبيل، وفي هذه المناسبة ألقى القس زويمر -رئيس مؤتمر القدس التبشيري- خطبة، كان مما قاله فيها:

(أيها الإخوان الأبطال والزملاء الذين كتب الله لهم الجهاد في سبيل المسيحية واستعمارها لبلاد المسلمين، فأحاطتكم عناية الرب بالتوفيق الجليل المقدس، لقد أديتم الرسالة التي نيّطت بكم أحسن الأداء، ووفقتم لها أسمى التوفيق، وإن كان يخيل إلي أنه مع إتمامكم العمل على أكمل الوجوه، لم يفتن بعضكم إلى الغاية الأساسية منه.. إني أقركم على أن الذين أدخلوا من المسلمين في حظيرة المسيحية لم يكونوا مسلمين حقيقيين، لقد كانوا كما قلتهم أحد ثلاثة: إما صغير لم يكن له من أهله من يعرفه ما هو الإسلام، أو رجل مستخف بالأديان لا يبغي غير الحصول على قوته، وقد اشتد به الفقر وعزت عليه لقمة العيش، وآخر يبغي الوصول إلى غاية من الغايات الشخصية. ولكن مهمة التبشير التي ندبتكم دول المسيحية بها في البلاد المحمدية ليست هي إدخال المسلمين في المسيحية، فإن هذا هداية لهم وتكريم، وإنما مهمتكم أن تخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقاً

لا صلة له بالله، وبالتالي لا صلة تربطه بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها، وبذلك تكونون أنتم بعملكم هذا طليعة الفتح الاستعماري في الممالك الإسلامية، وهذا ما قمتم به في خلال الأعوام السالفة خير قيام، وهذا ما أهنتكم عليه، وتهنتكم دول المسيحية والمسيحيون جميعاً كل التهنة)، وأضاف قائلاً:

(لقد قبضنا أيها الإخوان في هذه الحقبة من الدهر من ثلث القرن التاسع عشر إلى يومنا هذا على جميع برامج التعليم في الممالك الإسلامية، ونشرنا في تلك الربوع مكامن التبشير والكنائس والجمعيات والمدارس المسيحية الكثيرة التي تهيمن عليها الدول الأوربية والأمريكية.. والفضل إليكم وحدكم أيها الزملاء أنكم أعددتكم بوسائلكم جميع العقول في الممالك الإسلامية إلى قبول السير في الطريق الذي مهدتم له كل التمهيد).

(إنكم أعددتكم نشأاً [في بلاد المسلمين] لا يعرف الصلة بالله، ولا يريد أن يعرفها، وأخرجتم المسلم من الإسلام ولم تدخلوه في المسيحية وبالتالي جاء النشء الإسلامي طبقاً لما أراه الاستعمار المسيحي لا يهتم بالعظام، ويجب الراحة والكسل، ولا يصرف همه في دنياه إلا في الشهوات. فإذا تعلم فللشهوات، وإذا جمع المال فللشهوات، وإن بنوا أسمى المراكز ففي سبيل الشهوات يجود بكل شيء).

(إن مهمتكم تمت على أكمل الوجوه وانتهيتم إلى خير النتائج وباركتكم المسيحية، ورضي عنكم الاستعمار، فاستمروا في أداء رسالتكم فقد أصبحتم

بفضل جهادكم المبارك موضوع بركات الرب) أه^(١).

في خطاب زويمر لفتات مهمة يجدر بكل مسلم غيور على دينه أن يتأملها جيداً، ولعل من أهمها قوله: (.. وإنما مهمتكم أن تخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقاً لا صلة له بالله، وبالتالي لا صلة تربطه بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها).

ومن هنا نستطيع أن نكتشف أسرار وأبعاد كثير من الأمور التي جرت ولا تزال تجري في بلدان العالم الإسلامي:

● قرر المبشرون في مؤتمرهم المنعقد سنة ١٩٠٦ بالقاهرة إنشاء جامعة علمانية على نمط الجامعات الفرنسية لمناهضة الأزهر، الذي قالوا عنه إنه يتهدد كنيسة المسيح بالخطر.

وفي سنة ١٩٠٨ تم افتتاح الجامعة المصرية [أي جامعة القاهرة اليوم]، وكان من أبرز المؤسسين لها والقائمين عليها:

قاسم أمين، سعد زغلول، أحمد لطفي السيد، مرقص فهمي، السير جاستون ماسترو، يعقوب آرتين، إسماعيل صدقي، وسيرة هذه الأسماء وتاريخها الفكري خير دليل على أن هذه الجامعة لن تكون إلا منبراً من منابر التغريب والإفساد،

(١) الغارة على العالم الإسلامي، ترجمة محب الدين الخطيب، وجذور البلاء لعبد الله التل ص (٢٧٥ - ٢٧٦)، وزويمر من أحبب المستشرقين وأشدهم عداوة للإسلام والمسلمين.

وعلى هذا النحو قامت كليات ومعاهد ومدارس ابتدائية، وثانوية في مصر- أولاً ثم في بقية البلدان العربية، وكلها ملتزم بالمنهج العلماني، ولكن بصياغة عربية معدلة لا بد فيها من التدرج، وعدم مفاجأة الناس بما لا يطيقون.

● جميع القادة الذين تولوا شؤون الحكم والفكر في بلادنا متخرجون من مدارس تبشيرية صليبية، أو من جامعات غربية كجامعة لندن، وباريس، وبرلين، أو من فروعها في بلادنا؛ كالجامعة اليسوعية، أو الأمريكية التي تخرج منها أكثر دعاة القومية العربية الذي تزعموا أحزاباً وحركات علمانية.. والكليات الحربية التي خرّجت قادة الانقلابات العسكرية لا تشذ عن هذه القاعدة في نهجها، وفي تربية الضباط الذين يتخرجون منها، ولا يكتفي المشرفون على هذه الكليات بالمناهج العلمانية التي يتلقاها الدارسون قبل تخرجهم، وإنما يرسلونهم إلى أمريكا وأوربا لما يسمونه دورات تختلف في مسمياتها، وتتفق في نتائجها التي لا تخرج عن الإعجاب بالغرب وتقدمه في مختلف المجالات، وفي مقدمتها إقامة علاقات محرمة يحنون إليها بعد عودتهم إلى بلدانهم.

● أنشأ المشرفون على الجامعة المصرية كليات ومعاهد عليا أطلقوا عليها اسم [الفنون الجميلة] مع التزام قاعدتهم الآنفة الذكر [التدرج وعدم مفاجأة الناس بما لا يطيقون] أتدري أيها القارئ الكريم ما هي هذه الفنون الجميلة؟!.

إنها: التمثيل، والتصوير، والموسيقى، والمسرح، والرقص، والسينما. ولا بد للدارسين والعاملين في هذا الميدان من اختلاط الرجال بالنساء، كما أنه لا يمكن

للمرأة أن تمارس هذه المهنة إلا إذا خرجت سافرة ومتبذلة.. هذه هي فنونهم الجميلة، أي أن ترقص المرأة مع الرجل على خشبة مسرح عام تمتلئ مقاعده بالمشاهدين فكيف إذا كانت هذه الفنون قبيحة؟!.

● كان من بين الذين مهدوا لهذا الغزو الهدام ناس تخرجوا من الأزهر، وآخرون مثقفون بثقافة إسلامية، ومن بين هؤلاء وأولئك: الشيخ رفاعة الطهطاوي، وقاسم أمين، وعلي عبد الرازق، يقول الأخير في تقريره لكتاب [السفور والحجاب] للكاتبة السورية نظيرة زين الدين:

(إني لأحسب مصر قد اجتازت بحمد الله طور البحث النظري في مسألة السفور والحجاب إلى طور العمل والتنفيذ، فلست تجد بين المصريين إلا المخلفين منهم من يتساءل اليوم عن السفور هل هو من الدين أم لا، ومن ضروريات الحياة الحديثة، أم لا، بل نجدهم حتى الكثير من الرجعيين المحججين منهم يؤمنون بأن السفور دين وعقل وضرورة لا مناص لحياة المدنية عنها).

(.. أما إخواننا السوريون فيلوحون أن للسفور والحجاب عندهم تاريخاً غير تاريخه في مصر، فهم لم يتجاوزوا بعد طور البحث النظري الذي بدأه بيننا المرحوم قاسم أمين منذ أكثر من عشرين سنة، ولكنهم على ذلك يسرون معنا جنباً إلى جنب في الطور الجديد الذي نسير فيه، طور السفور الفعلي الكلي الشامل)^(١).

(١) صدر هذا الكتاب سنة ١٩٢٨، انظر مجلة الهلال، أغسطس ١٩٢٨ [عن كتاب العلمانية

للشيخ سفر الحوالي، ص: (٦٣١)].

أما الشيخ رفاة الطهطاوي، فقد أعرب في كتابه [تخليص الإبريز في تلخيص باريز] عن إعجابه بحضارة الغرب، ودعا بعد عودته من فرنسا إلى الاقتداء بالفرنسيين حتى في إنشاء المسارح والمراقص، مدعياً أن الرقص على الطريقة الأوروبية ليس من الفسق في شيء، بل هو أناقة، وفتوة^(١).

ولم يكن موقف الشيخ محمد عبده بعيداً عن موقف هؤلاء المحسوبين على الأزهر، يقول عباس محمود العقاد وهو من المعجبين بالشيخ: إن دراسة الفنون الجميلة من بنات أفكار محمد عبده، ومن جهة ثانية فقد نقل عن بعض الذين كانت لهم صلة بالشيخ أنه هو الذين ألف كتاب [تحرير المرأة]، أو أنه هو الذي أملى أفكار هذا الكتاب على تلميذه قاسم أمين إرضاء للأميرة [نازلي فاضل] التي غضبت من كتابه الأول الذي ينتصر فيه للحجاب، ويتنقد بعض السيدات المصريات اللاتي يتشبهن بالأوربيات، فظنت الأميرة نازلي بأن قاسماً يعينها.

الأميرة نازلي فاضل هي ابنة الأمير مصطفى فاضل نجل إبراهيم بن محمد علي الكبير، وكان والدها مصطفى فاضل يعتبر نفسه أحق بعرش مصر من الخديوي إسماعيل، وهي -نازلي- كانت ضد الخديوي عباس، ولهذا السبب كان لها صلة وثيقة بقصر [الدوبارة] وهو مقر المندوب السامي الإنكليزي، كما كان لها صالون يرتاده كبار أهل السياسة والفكر من أمثال: المندوب السامي البريطاني

(١) عودة الحجاب: (١/٢٦)، للدكتور محمد بن أحمد بن إسماعيل، وكتاب: الإسلام والحضارة الغربية، ص: (٣٦)، د. محمد محمد حسين.

اللورد كرومر، فارس نمر، يعقوب صروف، الشيخ محمد عبده، قاسم أمين، اللقاني، محمد بيرم، سعد زغلول.

ومن الجدير بالذكر أن هذه الأميرة المعجبة بالغرب، والداعية إلى السفور والاختلاط كانت تطبق الاختلاط في صالونها يوم أن كان الاختلاط غير وارد طرحه للنقاش عند عامة الناس وخاصتهم إلا من كانوا على شاكلة رواد صالونها. إذن كان الشيخ محمد عبده من رواد هذا الصالون، ومن المعجبين بالأميرة، وكانت هي معجبة به كذلك، وقال الشيخ فيها - كما جاء في كتاب تاريخ الإمام: (حضرة البرنسيس التي لها من قلبي المنزل الأبهي، والمقام الأسمى)، وما كان الشيخ - وهو الذي يتقد ذكاء- يجهل انحراف هذه الأميرة وفسادها، ولا عجب إذا علمنا أنها تزوجت فيما بعد من طبيب أمريكي فأخرجها عن الإسلام، وتنصرت -والعياذ بالله- وكذا ابنتها [فتحية]، -شقية الملك فاروق- فقد تزوجها قبطني مصري، بدعوى أنه أسلم، ثم تبين عدم إسلامه، فحملها على أن تنصرت معه، وأخذ مالها، وفارقها، ثم قتلت فيما بعد في أوروبا^(١).

● إذا كان الاختلاط والسفور قاصراً على صالونات: نازلي فاضل، ومي زيادة، وروز اليوسف، وكان رواد هذه الصالونات نوعية محدودة من أهل الفكر والسياسة، فإن هدى شعراوي تمكنت من السير بهذا النشاط الهدام خطوات

(١) عودة الحجاب، القسم الأول، معركة الحجاب والسفور، د. محمد بن أحمد بن إسماعيل، ص: (٣٧-٣٩).

أخرى، ففي سنة ١٩١٩ قادت مع زوجة سعد زغلول المظاهرة النسائية التي طافت شوارع القاهرة هاتفة بالحرية، (ثم تجتمع أمام ثكنات قصر النيل، وهتفن ضد الاحتلال.. ثم بتدبير سابق، ودون مقدمات ظاهرة، خلعن الحجاب، وألقين به في الأرض، وسكبن عليه البترول، وأشعلن فيه النار.. وتحمرت المرأة!!!)^(١).

وفي عام ١٩٢٣ دعت عدداً من النساء لحضور اجتماع في منزلها، وترتب على هذا الاجتماع بدء تشكيل الاتحاد النسائي المصري، الذي أخذت مجالات أنشطته تتطور وتتشعب داخل المجتمع المصري.

وفي عام ١٩٤٤ تمكنت مع زميلات لها من عقد المؤتمر النسائي العربي الأول الذي أثار موجة غضب واستنكار في عدد من العواصم العربية.

وكانت هدى شعراوي في جميع أنشطتها النسائية مقلدة للمرأة الغربية، ومنفذة لما يطلب منها في الاتحاد النسائي الدولي، وفضلاً عن هذا وذاك فقد كانت معجبة بكل ما في الغرب، حتى شراسة أخلاق الرعاع في باريس كانت معجبة بها، ففي خطبة لها بمناسبة الاحتفال بالعيد العشرين للاتحاد النسائي الذي عقد في مدينة روما تقول:

(.. ومنذ ذلك اليوم -أي يوم قبلت عضوية مصر في الاتحاد النسائي الدولي- قطعنا على أنفسنا عهداً أن نحذو حذو أخواتنا الغربيات في النهوض

(١) واقعنا المعاصر، محمد قطب، ص: (٢٥٨).

بجنسنا مهما كلفنا ذلك، وأن نساهم بأمانة وإخلاص في تنفيذ برامج الاتحاد النسائي الدولي الذي يشمل أغراضنا المشتركة).

وتقول عن فرنسا في أول زيارة لها:

(وقد أعجبني في باريس كل شيء حتى شراسة أخلاق الرعاع فيها، لأنها لا تخلو من خفة الروح وتعبر عن شخصية لا تكلف فيها ولا تغيير، فالفرنسيون أشخاص متفردون بعبقريتهم، مستقلون في أفكارهم وطباعهم وأعمالهم وصفاتهم حتى في عيوبهم).

وفي خطبة لها أمام الطاغية كمال أتاتورك قالت: (.. إن هذا المثل الأعلى من تركيا الشقيقة الكبرى للبلاد الإسلامية، شجع كل بلاد الشرق على محاولة التحرر، والمطالبة بحقوق المرأة.. وأضافت: إذا كان الأتراك قد اعتبروك عن جدارة أباهم وأسموك [أتاتورك] فأنا أقول: إن هذا لا يكفي بل أنت بالنسبة لنا [أتاتورك] فتأثر كثيراً بهذا الكلام الذي تفردت به، ولم يصدر معناه عن أي رئيسة وقد شكرني كثيراً في تأثر بالغ، ثم رجوته في إهدائنا صورة لفخامته لنشرها في مجلة [الإجيشيان]^(١).

إن هدى شعراوي برت بعهدتها الذي التزمت به في روما!! فحذت حذو المرأة الغربية، واتخذتها قدوة لها، وفي تركيا رشحت كمال أتاتورك ليكون أباً للشرق

(١) هذه المقاطع يمكن العودة إليها في الصفحات التالية من مذكرات هدى شعراوي: (١٢٩،

٢٤٩، ٤٥٤)، كتاب الهلال، وكتاب عودة الحجاب، مصدر سابق، ص: (١١٣).

كله، وليس أباً لتركيا وحدها، وهي التي لا تجهل فساد هذا الطاغية وامتهانه للمرأة عندما جعل من قصوره موطناً للدعارة والفجور، وإذا كنا اليوم نقرأ مذكرات بعض الذين عاشوا مع أتاتورك، ونقرأ فيها فظائع عن مخازيه بحق المرأة نعف عن ذكرها في كتابنا، فكيف بمن كانت على صلة قوية بتركيا ورجال السياسة والفكر فيها أيام الطاغية أتاتورك؟!، ولا تجهل هدى شعراوي شدة عداوة أتاتورك للإسلام والمسلمين، فكيف تعمل على تحرير المرأة ثم تصفق من جهة أخرى للذي استعبد الأمة التركية رجالاً ونساءً.. عقيدة وفكراً، وجعل من نفسه إلهاً يعبد؟!.. إن هدى شعراوي تريد - عن علم وخبث - أن يجلِّ بمصر خاصة والشرق عامة ما حلَّ بشعب تركيا.

وخلاصة القول: إن هدى شعراوي استفادت من أخطاء: نازلي فاضل، وروز اليوسف، ومي زيادة، فتداركتها وأقامت علاقات واسعة مع أهل الفكر والسياسة والإعلام، ومن ذلك بعض شيوخ الأزهر، وما كانت تخطو خطوة جديدة في مسيرتها إلا وتهيء لها مختلف الأسباب، وتقف في بعض الأحيان في صف الذين يدافعون عن الإسلام، ولها في ذلك رد على بعض الأقباط.

لكن هدى شعراوي رغم إمكاناتها الواسعة ما كان لها أن تحقق هذا النجاح الذي أحرزته لو لم تكن ابنة عميل الإنجليز محمد سلطان باشا، وزوجة علي شعراوي باشا الرجل الثاني بعد سعد زغلول في حزب الوفد، ولولا دعم الدوائر الاستعمارية لها داخل مصر وخارجها.

أما بالنسبة لدور الشيخ محمد عبده المؤسف وعلاقته بالأميرة نازلي فاضل وبمن كان يتردد على صالونها، فلا أظن أن الشيخ كان يريد للمرأة المسلمة ما يريده الإنجليز والفرنسيون ولا حتى ما تريده نازلي وغيرها، ولكن خصومته مع الخديوي ومصالح دنيوية أخرى دعت به إلى الاستعانة بهذه المرأة وباللورد كرومر الذي كان يتردد على صالونها، وكان رواد هذا الصالون من معارضي الخديوي.. والشيخ في هذا مؤاخذ غفر الله له.

إن سياسة الإنجليز والفرنسيين كانت منسجمة انسجاماً كاملاً مع ما قاله زويمر، وخير مثال على ذلك ما ذكره الجبرتي عن أحداث سنة خمس عشرة ومائتين وألف، قال رحمه الله:

(ومنها تبرج النساء وخروج غالبهن عن الحشمة والحياء، وهو أنه لما حضر الفرنسيين إلى مصر ومع البعض منهم نساؤهم كانوا يمشون في الشوارع مع نسائهم وهن حاسرات الوجوه لابسات الفستانات والمناديل الحرير الملونة ويسدلن على مناكبهن الطرح الكشميري والمزركشات المصبوغة ويركبن الخيول والحمير ويسوقونها سوقاً عنيفاً مع الضحك والقهقهة ومداعبة المكارية معهم وحرافيس العامة، فمالت إليهم نفوس أهل الأهواء من النساء الأسافل والفواحش فتداخلن معهم لخضوعهم للنساء وبذل الأموال لهن، وكان ذلك التداخل أولاً مع بعض احتشام وخشية عار ومبالغة في إخضاعه، فلما وقعت الفتنة الأخيرة بمصر

و حاربت الفرنسيين بولاق، وفتكوا في أهلها وغنموا أموالها وأخذوا ما استحسنا من النساء والبنات صرن مأسورات عندهم، فزيوهن بزي نساءهم وأجروهن على طريقتهن في كامل الأحوال، فخلع أكثرهن نقاب الحياء بالكلية وتداخل مع أولئك المأسورات وغيرهن من النساء الفواجر، ولما حل بأهل البلاد من الذل والهوان وسلب الأموال واجتماع الخيرات في حوز الفرنسيين ومن والاهم وشدة رغبتهم في النساء وخضوعهم لهن وموافقة مرادهن وعدم مخالفة هواهن ولو شتمته أو ضربته بتاسومتها فطرحن الحشمة والوقار والمبالاة والاعتبار، واستملن نظراءهن واختلسن عقولهن لميل النفوس إلى الشهوات وخصوصاً عقول القاصرات. وخطب الكثير منهم بنات الأعيان، وتزوجوهن رغبة في سلطانهم ونواهم فيظهر حالة العقد الإسلام وينطق بالشهادتين لأنه ليس له عقيدة يخشى فسادها، وصار مع حكام الأخطاط منهم النساء المسلمات متزينات بزيمهم ومشوا معهم في الأخطاط للنظر في أمور الرعية والأحكام العادية والأمر والنهي والمناداة، وتمشي المرأة بنفسها أو معها بعض أترابها وأضيافها على مثل شكلها. وأمامها القواسة والخدم وبأيديهم العصي يفرجون لهن الناس مثل ما يمر الحاكم ويأمرن وينهين في الأحكام.

(ومنها أنه لما أوفى النيل أذرعه ودخل الماء إلى الخليج وجرت فيه السفن وقع عند ذلك من تبرج النساء واختلاطن بالفرنسيين ومصاحبتهن لهن في المراكب والرقص والغناء والشرب في النهار والليل في الفوانيس والشموع الموقدة وعليهن الملابس الفاخرة والحلي والجواهر المرصعة وصحبتهن آلات الطرب وملاحو السفن

يكثر من الهزل والمجون، ويتجاوبون برفع الصوت في تحريك المقاذيف بسخيف موضوعاتهم وكتائف مطبوعاتهم وخصوصاً إذا دبت الحشيشة في رؤوسهم وتحكمت في عقولهم فيصرخون ويطلبون ويرقصون ويزمرون ويتجاوبون بمحاكاة ألفاظ الفرنساوية في غنائهم وتقليد كلامهم شيء كثير.

وأما الجوارى السود فإنهن لما علمن رغبة القوم في منطق الأنتى ذهبن إليهم أفواجاً فرادى وأواجاً فنظنن الحيطان وتسلقن إليهم من الطيقان، ودلوهم على مخبات أسيادهن وخبايا أمواهم ومتاعهم وغير ذلك^(١).

(١) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، للشيخ عبد الرحمن الجبرتي، دار الجيل:
(٢/٤٣٦).

المستغربون على خطى أساتذتهم

رأينا فيما مضى أن جحافل المبشرين والمستعمرين كانوا منذ مطلع القرن التاسع عشر يعملون وفق خطة محددة، هدفها إفساد أخلاق المسلمين وإبعادهم عن التمسك بتعاليم دينهم الذي هو عصمة أمرهم، وكان التجاوب مع هذه الخطة محبطاً لآمال وطموحات المبشرين كما أشار إلى ذلك زويمر في خطبته.

وبعد احتلال الجيوش الفرنسية بقيادة نابليون بونابرت لمصر عام ١٧٩٨، شهدت خطة المستعمرين بعض التقدم الذي تزايد عندما أخذ محمد علي باشا وأبناؤه من بعده يرسلون الطلبة الصغار إلى فرنسا بقصد الدراسة، وكان هؤلاء الطلبة يتسمنون مراكز قيادية بعد عودتهم إلى بلدهم، كما كانوا يستغلون هذه المراكز التي شغلوها في الدعوة إلى الفكر الغربي العلماني.

غير أن الإنجليز عند احتلالهم لمصر عام ١٨٨٢ استطاعوا أن يحققوا نجاحاً واسعاً عجز عنه الفرنسيون، ولعل السبب يعود إلى أن النفوس كانت مهياً لذلك، ومن جهة ثانية فإن طريقة الإنجليز في العمل كانت أكثر خبثاً ودهاءً، ولهذا فقد أنشؤوا المدارس والجامعات، ووضعوا المناهج الكفيلة بتحقيق أهدافهم، وغني عن البيان أن داهيتهم [دنلوب] كان مستشاراً لوزارة المعارف، والوزير عنده ليس أكثر من منفذ لما يرسمه ويخطط له هذا المستشار، وفضلاً عن هذا وذاك فقد ربي الإنجليز أجيالاً اختاروهم بعناية فائقة ودراية تامة، وأصبح التلامذة بعد رحيل المستعمر رسلاً له، يترسمون خطاه، ولا يرضون بغير نهجه بديلاً.

كانت مسألة تحرير المرأة - كما زعموا - شغل تلامذة المستعمرين الشاغل، ومن أجل تحقيق هذا الهدف حاولوا اختصار الوقت مستغلين ما كسبوه من شعبية وتأييد جماهيري عريض، ومن الذي يستطيع في تلك الفترة أن يشكك بالزعيم سعد زغلول وأمثاله من أبطال النضال والاستقلال (!!)، بل من ذا الذي يستطيع أن يزعم بأن هؤلاء القادة ينفذون مخططات المستعمر الدخيل؟!، مع أن الخاصة والعامية يعلمون أنهم من الد أعدائه.

وخلال فترة قياسية لا تتجاوز أربعة عقود نجح التلامذة في تحقيق ما عجز عنه زويمر وأمثاله، وبشكل أخص فيما أسموه تحرير المرأة:

- فنظام الدراسة في الجامعات قام على أساس الاختلاط بين الجنسين، ثم شمل هذا النظام المعاهد والمدارس على مختلف مراحلها.. وأصبحت هذه الجامعات مثل معارض الأزياء، لأن القوانين المرعية لا تشترط لباساً معيناً، وهذا يعني أن من حق النساء أن يلبسن ما يجلوهن ولو كان فيه مخالفة لقواعد الدين والأخلاق، وليس من حق أحد أن يمنع البنت من الجلوس مع الشاب الذي تختاره على مقعد واحد، ولهما حق الخروج والدخول إلى الجامعة سوية، وما يصاحب هذا الدخول والخروج من خلوات محرمة، ولا تسل عن الحلال والحرمة في ذلك لأن أبطال الاستقلال حرروا المرأة من الظلم والظلام والاستبداد، وأصبحت مثل الرجل، ولم تعد مجرد متاع يتصرف بها ولي أمرها كما يشاء.

- والمرأة صارت شريكة للرجل تعمل وإياه في جميع مؤسسات الدولة، وفي

الشركات العامة والخاصة وكثيراً ما يحدث أن يكون مكتب الرجل والمرأة في غرفة واحدة، يمكثان فيها ثماني ساعات في اليوم، والباب لا بد وأن يكون مغلقاً معظم الوقت. إن هذا الوضع الذي لا يشك مسلم يعرف الحد الأدنى من العلوم الشرعية بحرمة أصبح هو الوضع الطبيعي المؤلف، ومن لا يعجبه ذلك فعليه الاستقالة من عمله، ومن الصعوبة بمكان أن يجد وظيفة بديلة ليس فيها مثل هذه المنكرات. وإذا كان هذا حال أصحاب الوظائف العادية المتواضعة، فأصحاب الوظائف الكبيرة: كالوزير، ووكيله، والمدير العام، وغيرهم لا بد أن يكون لكل منهم مسؤولة عن إدارة شؤون مكتبه [سكرتيرة]، وهم الذين يختارونها، وقد جرت العادة أن يكون الجمال هو الشرط الأول في هذا الاختيار، ويكاد الباحث لا يجد امرأة قبيحة الشكل تشغل وظيفة [سكرتيرة].

وما الذي يمكن تصويره من رجل وامرأة قد نُزِعَ خوف الله من قلبيهما عندما يغلق عليهما باب واحد معظم النهار؟!، أجل ما الذي يمكن تصويره إذا كانت المرأة جميلة وحريصة على إرضاء رئيسها لأن هذا الرضى ضمان لاستمرارها في العمل مع زيادة مرتبتها ومشاركة الوزير في إدارة شؤون الوزارة?!.

سبحان الله! كيف سمح بعض الرجال لزوجاتهم أن يجلسن مع الرجال الغرباء في مكاتب تتحقق فيها الخلوة المحرمة ثماني ساعات في اليوم، مع أن الزوج نفسه قد لا يجلس مع زوجته مثل هذه المدة في يومه?!، وبعد كثير من التردد أضيف: لقد استحدثت بعض كبار المسؤولين غرف نوم تابعة لمكاتبهم، وهذا ما

قرأته في أكثر من صحيفة عربية تحدثت عما يجري في بعض البلدان العربية وليس الأجنبية.

- وللمرأة القِدْحُ المعلى في أماكن اللهو والعبث والطرب: فهي في المسارح المنتشرة في طول البلاد وعرضها، ترقص وتغني لرواد هذه الأوكار الهدامة، ولكل مغنية أو راقصة جمهورها الذي يغص به المسرح.

وهي في السينما تمثل مع الرجال أدواراً هابطة لا تخرج في موضوعاتها عن الجنس والجريمة.

وهي على شاشة التلفاز ترقص وتغني وتمثل، والتلفاز أيضاً مشكلة أخرى، فقد كان علماءنا ودعاتنا يحذرون من دور السينما مع أن وجودها كان محدوداً، ولا يذهب إليها إلا كل من يستسهل الوقوع في المنكرات، فأصبحت السينما عن طريق التلفاز موجودة في كل بيت من بيوت المسلمين، ثم جاء دور البث المباشر في الإفساد، وفي هذا البث كل ما يخدش الحياء، ويخل بالمروءة ما نترفع عن وصفه، ثم يأتي من يقول: إنني ما أدخلت هذا الجهاز إلى بيتي إلا وأنا قادر على التحكم فيه وسماح ما يبيح الشرع سماعه.. وهذا من المستحيلات، فقد يكون الأمر كذلك في حال وجود هذا القائل قرب الجهاز في بيته، أما إذا غاب الرجل عن منزله وانصرف إلى عمله اليومي، فإن أبناءه لابد أن يبحثوا عن هذا الذي يمنعه أبوهم منه، وكل ممنوع مرغوب.

- والمرأة أحد أبرز أركان السياحة والاصطياف، وما السياحة عند الغالبية

العظمى من هواة هذا الفن إلا المرأة والخمرة، وبعد ذلك بدرجات تأتي أهمية دور الآثار والمتاحف العامة، ولهذا تعتمد الجهات المسؤولة عن هذا القطاع إلى إنشاء كم كبير من الأوكار يكثر فيها وجود المرأة: كالمسارح، ودور السينما، والفنادق، والملاهي، والحدائق العامة، ومحلات بيع الخمر، ويمضي العام في الاستعداد لهذا الموسم وفي إقامة حفلات رقص وغناء صاحبة يشارك فيها كبار الممثلين والمغنين من الجنسين.

وزيادة على ذلك تقوم السلطة باستنفار فريق من قوات الأمن لحماية السواح والسهر على راحتهم، ولا عجب في ذلك فإن قوات الأمن المسؤولة عن مكافحة الفساد والدعارة التي يسمونها في بعض البلدان [قسم الآداب العامة].. هذه القوات أصبحت تحمي وتحرس السواح الذين يمارس معظمهم الفواحش والمنكرات، ثم يعودون إلى بلدانهم لينشروا أخبار هذه الفضائح التي مارسوها أو سمعوا بها من زملائهم في السفر.

ولكن الذي يثير العجب أن أكثر السواح من الأوروبيين، وهكذا فقد انعكست الآية حيث كان ناس من المترفين في بلادنا يسافرون إلى البلدان الأوربية بحثاً عن الفواحش والمنكرات، فأصبح المترفون وغيرهم حتى من الفقراء الأوروبيين يأتون إلى بعض بلداننا لممارسة الرذيلة فيها.. وهذا كله رغم بشاعته وقبحه لا يثير حفيظة وغيره المسؤولين عن السياحة، وكل الذي يهتمون به نجاح الموسم، وزيادة عدد السواح، لأن هذه الزيادة تعني ازدهار اقتصاد البلد، وضمان دخول العملة الصعبة، ولو كان ذلك كله على حساب الدين والشرف والأخلاق.

وإذا:

عندما رفع تلامذة المستعمرين من أبناء جلدتنا شعار تحرير المرأة كانوا يطبقون الخطة نفسها التي رسمها: زويمر، وبونابرت، وكرومر، وكان الأساتذة والتلامذة يعلمون أن المرأة هي قوام الأسرة، وفسادها يعني فساد الأسرة، وفساد الأسرة يعني فساد المجتمع، وهكذا كان شأن بني إسرائيل في تاريخهم:

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال:

«إن الدنيا حُلُوَّةٌ خَصْرَةٌ، وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون. فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء»^(١).

وعندما فتن بنو إسرائيل بالنساء أصابهم الوهن والبغي، وكثرت بينهم الخلافات والانقسامات، وما زالت الفتن تترى عليهم بعد فتنة النساء حتى دالت دولتهم، وتفرقوا في الأمصار شذر مذر، واستحقوا غضب الله ومقته.

ودول أوروبا في العصر الحديث أصابها ما أصاب اليهود في تاريخهم، كانت أسرهم محافظة و متمسكة بالخلق والدين، وتغيرت أحوالهم بعد قيام الحركات العلمانية، حيث كانت المرأة أول المستهدفين بهذا التغيير، فخرجت من منزلها تعمل والرجال سواء بسواء في مختلف المرافق العامة، وبعد خروجها من المنزل خرجت عن عفائها وطهرها، فانفرط عقد الأسرة، وانهارت أخلاق المجتمع،

(١) رواه مسلم في صحيحه، انظر صحيح مسلم بشرح النووي: (١٧/٥٥).

ولابد أن يكون مصيرهم كمصير بني إسرائيل الذي ورد ذكره في عدد من سور القرآن الكريم.

ولا تزال المرأة إذا خرجت عن هدي الإسلام من أشد الفتن على الرجال وأعظمها أثراً:

عن أسامة بن زيد رضي الله عنها قال: قال رسول الله ﷺ: «ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء»^(١).

ينكر دعاة الاختلاط والتغريب أن تكون المرأة فتنة، ويزعمون أن مثل هذا القول لا يقوله إلا كل من يحتقر المرأة ولا يراها صالحة إلا للمتعة والخدمة في المنازل، ويصرون على الادعاء بأنها مثل الرجل، وأن الاختلاط بها أمر عادي جداً.

وقد كذبوا في هذا كله لأن أخبار فضائحهم بسبب الاختلاط مادة دسمة للصحافة وسائر وسائل الإعلام، ولا ينجل بعضهم من الاعتراف بهذه الفضائح، وبيعها بأثمان باهظة للناشرين، ويندر أن نجد سياسياً^(٢) أو فناً - من الجنسين - قد نأى بنفسه عن هذا الانحطاط الخلقي لا فرق في ذلك بين دول الشرق والغرب، وهناك ناس من بينهم تكشف فضائحهم بعد هلاكهم بأعوام قد تبلغ قرناً أو يزيد من خلال الاطلاع على وثائق جديدة، وقد كان يظن بهم البعد

(١) متفق عليه.

(٢) السياسيون المتمسكون بدينهم وخلقهم هم من هذا النادر، والأصل في العمل السياسي المعاصر منع الإسلاميين من دخول هذا النادي.

عن مثل هذه المواطن التنتنة، ودعاة التغريب هم الذين يحتقرون المرأة لأنهم أخرجوها من منزلها حيث العفاف والوقار والحشمة، وزجوا بها في مواطن مشبوهة تتعارض مع رسالتها كأم وربة بيت، وفي طليعة هذه المواطن اتخاذها مادة دعائية للتجارة والتكسب، والأمثلة على ذلك كثيرة وفي أماكن متعددة أبرزها ما يعرض على شاشة التلفاز.

وكل مسلم متمسك بأحكام الدين وآدابه لا يلتفت إلى أقاويل وأكاذيب دعاة التغريب، بل يستسلم وينقاد لقول المعصوم عليه السلام: «ما تركت بعدي فتنة أضرت على الرجال من النساء»، فيجتنب كل ما يقربه من هذه الفتنة، ومن ذلك الخلوة المحرمة: عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يخلون أحدكم بامرأة، فإن الشيطان ثالثهما»^(١).

ولا أشك بانتشار الشياطين في المدارس والمعاهد والجامعات، وفي مكاتب الوزارات والمؤسسات والشركات التي يختلط فيها الجنسان، وما هذه المناكير التي تحدث وينشر بعضها إلا بسبب إغراءات الشياطين لأناس يسهل عليهم الاستجابة لنداء الشياطين.

(١) رواه أحمد: (١٨/١)، والترمذي: (٢٠٧/٣)، وقال: حسن صحيح.

علمانيون أكثر من العلمانية

العلمانية تعني أن يكون الدين لله، أي أن يتعبد الإنسان ربه بالطريقة التي يريد، ويكون الحكم وشؤون السياسة لقيصر، وليس لقيصر أن يتدخل في شؤون الدين ومؤسساته، كما أنه ليس من حق الله أن يتدخل في شؤون قيصر.

وتعني العلمانية أيضاً أن تضمن الدولة حرية الاعتقاد، فلا تسمح لأية جهة ولو كانت حكومية أن تفرض على أماكن العبادة شيئاً مخالفاً لأنظمتها وللقرارات التي يتخذها رجال الدين طالما بقيت هذه الأنظمة والقرارات في حدود أماكن العبادة.. صحيح أن الثورة الفرنسية تطرفت بعض الشيء في مفهوم العلمانية، وانتزعت من رجال الدين كثيراً من الحقوق التي يتمتع بها أمثالهم في بقية الدول الأوروبية، لكن دور العبادة بقيت مستقلة ومحترمة.

المستغربون في بلادنا كانوا في علمانيتهم أشد علمانية من العلمانية في مفهومها الصحيح وفي تطبيق الدول الأوروبية لهذا المفهوم، وسنختار فيما يلي أمثلة تتصل بموضوع البحث:

١ - حجاب المرأة: يرى الغربيون أن المرأة لها نفس الحقوق التي يتمتع بها الرجل، ومن ذلك اللباس لأنه حق شخصي لكل فرد لا يجوز التدخل فيه. أما البلدان الإسلامية التي تدين حكوماتها بالنظام العلماني فقد منعت الحجاب الشرعي في الجامعات والمدارس وغيرها من مؤسسات الدولة، ومن الأمثلة على ذلك:

أ - تركيا: فمن جملة القرارات التي اتخذها عدو الإسلام أتاتورك بعد هدمه للخلافة الإسلامية منع الحجاب في سائر مؤسسات الدولة من تعليمية وغيرها، وما كان الأمر عنده قاصراً على منع الحجاب، وإنما كان يريد إشاعة الفساد والإلحاد، وكان قدوة سيئة لشعبه في ممارسة هذه المنكرات، وتمكن خلال خمسة عشر عاماً من وضع المرأة التركية الملتزمة بدینها في المستوى الذي كانت عليه المرأة في أوروبا.

وفي عهد عدنان مندريس -أي في أوائل الخمسينيات- ألغت الحكومة عدداً من القرارات الظالمة التي كان قد اتخذها أتاتورك وخليفته عصمت إينونو، وتنفس المسلمون الصعداء طوال هذا العهد، غير أن العسكريين الذين كان أتاتورك يحكمهم وهو في قبره أدركوا أن قرارات مندريس كانت سبباً من أسباب بزوغ فجر الإسلام، فما كان من قادتهم إلا أن قادوا انقلاباً عسكرياً، تولوا إثره شؤون الحكم، وأعدموا مندريس، ثم اتخذوا إجراءات صارمة ضد التدين والمتدينين، غير أن كيد الشيطان كان ضعيفاً، فالصحوة استمرت وتزايدت والحمد لله.. وهم اليوم يمنعون قبول المرأة في الجامعات إذا كانت من اللواتي يلبسن الحجاب، ولكنهم لا يمنعون المرأة إذا كانت تلبس ملابس فاضحة تخلّ بمعاني الشرف والمروءة، ولا ندري ما علاقة الحجاب بالدراسة، وهل العلم يتعارض مع حشمة المرأة وحسن أخلاقها والتزامها بما فرضه الله عليها؟!، ومما يجدر ذكره أن موقف السلطة من حجاب المرأة في الجامعات وغيرها من مؤسسات الدولة هو أحد إجراءات كثيرة يتخذونها ضد الإسلام والمسلمين، أما الفساد وهدم قواعد الأخلاق فتلقى منهم

كل عون ومساعدة، بل وكبراًؤهم من مختلف الأحزاب والحكومات العلمانية المتعاقبة هم الذين يتزعمون عصابات [المافيا] والرشوة وسرقة الأموال العامة، وسجلات المحاكم والمجالس النيابي- البرلمان - أكبر شاهد على ذلك.

ب- تونس: لم يعد فساد أتاتورك بعد هلاكه قاصراً على تركيا وحدها، وإنما تجاوزها فشمل العالم الإسلامي كله وبشكل أخص البلدان المجاورة لتركيا. لقد وجد فيه المنافقون الزنادقة مثلاً يقتدى به، وبطلاً مناضلاً ضد الاستعمار والرجعية والجهل، وقائداً محنكاً، استطاع خلال فترة زمنية لا تتجاوز العقدين أن يضع بلده في مصاف الدول المتحضرة.

وكان الرئيس التونسي السابق - الحبيب بورقيبة - من أكثر الحكام العرب إعجاباً بأتاتورك وبالنخبة الحاكمة في فرنسا التي نهل منها ثقافته، وعندما وصل إلى سدة الحكم^(١) بأساليب ملتوية لم تكن فرنسا بعيدة عنها، عقد العزم على أن يسلك الطريق نفسه الذي سلكه من أعجب بهم في كل من باريس وأنقرة، بل كان أكثر منهم تطرفاً في علمانيته وزندقته، ونستعرض فيما يلي بعض الأمثلة على ذلك:

- أصدر حاكم تونس السابق القانون رقم [١٠٨] الذي يمنع ما أسماه بـ [اللباس الطائفي]، وعندما يُذكر اسم هذا اللباس يتبادر إلى الذهن أنه لباس طائفة من الطوائف الشاذة المنحرفة الدخيلة على المجتمع التونسي الذي لا يدين بغير الإسلام، ولا يقبل العادات والتقاليد الوافدة إذا كانت تصطدم مع عقيدة الأمة

(١) كان ذلك في عام ١٩٥٦ م.

ومنهجها الرباني الخالد. لكن الأمر ليس كذلك في دين بورقيبة ومنهجه، فاللباس الطائفي عنده هو اللباس الذي فرضه الشارع على المرأة، وهو في شريعته: (مناف لروح العصر والتطور السليم، ولئن ادعى هذا الزي لنفسه الاحتشام فإنه يرمز لا محالة إلى ضرب من الشذوذ، والانتساب إلى مظهر متطرف هدام، وهو يتعارض مع ما دعا إليه المجاهد الأكبر فخامة الرئيس الحبيب بورقيبة في الخطاب الذي ألقاه في شهر جوان بمناسبة يوم العلم)^(١).

- وتتشدد الدولة في تطبيق قانون اللباس الطائفي، ومن مظاهر هذا التشدد أن الحبيب بورقيبة كان قد ظهر على شاشة التلفاز في احتفال شعبي عام وهو ينزع بيده الأثمة أغطية النساء التونسية قسراً عن رؤوسهن وهو يقول لإحدهن: انظري إلى الدنيا من غير حجاب.

ولا تسمح دوائر الأمن والجوازات بمنح المرأة بطاقة هوية أو جواز سفر إذا كانت محجبة، ولا يقبلون منها أقل من أن تدخل على دوائر البوليس وهي حاسرة الرأس كاشفة الصدر.

(١) جريدة الصباح التونسية الصادرة في ٢٣/١٠/١٩٨١، وهذا البيان مهمور بتوقيع وزير التربية القومية محمد فرج الشاذلي، وكان قد سبقه بيان آخر (٢٣/٩/١٩٨١) مهمور بتوقيع رئيس الوزراء آنذاك -محمد المزالي- الذي جرد من مناصبه كلها- فيما بعد- وهرب من تونس قبل أن يعتقله زملاؤه، ويعيش الآن لاجئاً سياسياً في إحدى الدول الأوروبية، وزاد الخرق اتساعاً في عهد تلامذة الحبيب بورقيبة الذين انقلبوا عليه.

وفي المدارس يأخذون تعهداً من ولي أمر الفتاة يقر فيه بأن ابنته تخلت عن ارتداء الزي الطائفي - إن كانت ترتديه من قبل -، ثم تتخذ المدرسة الإجراء المناسب إذا عادت الطالبة لارتداء الحجاب، وقد تكون العقوبة الرادعة تمزيق حجاب المرأة أمام مشهد عام من الطلبة لأن التعليم مختلط، وقد يكون أشد من هذا. ومن مظاهر التشدد في تطبيق قانون اللباس الطائفي أن دوائر المستشفيات والمصحات تمنع علاج أو إسعاف الحوامل المحجبات عندما يأخذهن المخاض. ومن باب أولى فإنهم لا يعالجون المريضات بشكل عام إذا اقترفن جريمة لباس الزي الطائفي!! وإنها لمواقف همجية تتقرز منها نفس كل حر أبي.

- أبرم النظام التونسي عقود عمل مع شركات ألمانية في فترة ما بين [١٩٧٠ - ١٩٧٤] تعهدت بموجبها الحكومة التونسية بتصدير [٧٠٠] فتاة لم تتجاوز واحدة منهن سن العشرين عاماً للعمل بالمصانع الألمانية، فأكلن لحم الخنزير وشربن المسكرات وسقطن في الفتنة، فمنهن من تزوجن الكفار ثم قذفوا بهن إلى الشوارع، ومنهن من احترفن البغاء.. وأصبحت تونس فيما بعد من الدول المصدرة للفتيات نحو أوروبا وغير أوروبا بشكل فوضوي أو بشكل منظم عبر شركات دولية للمتاجرة بالرقيق الأبيض.

- أول شيء فعله بورقيبة بعد توليه شؤون الحكم عام ١٩٥٦ تتمثل في إصدار مجلة الأحوال الشخصية في ١٣ أغسطس ١٩٥٦، وإذا كان مجال هذا البحث لا يسمح بالتوسع في دراسة هذه القوانين فلا أقل من عرض نماذج منها فيما يلي:

- منع تعدد الزوجات مع فرض عقوبات زاجرة على كل من يخالف هذا القانون.

- إلغاء قوامة الرجل في بيته ونسخ واجب طاعة المرأة لزوجها.

- صادقت الحكومة التونسية على اتفاقية الأمم المتحدة المتعلقة بالقضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة بمقتضى القانون عدد ٦٨ لسنة ١٩٨٥، وصار من حق المرأة التونسية المسلمة أن تتزوج من غير المسلم، وهناك أمثلة كثيرة على تطبيق هذا القانون، وتحدثت بعض المتزوجات من غير المسلمين عبر وسائل الإعلام عن تجاربهن في هذا الميدان، ومواقف الأهل والأقرباء منهن، ونقدن لتزمت المجتمع.

- نشرت مجلة الحقائق التونسية خبر المباراة التي انتظمت بين طالبات كلية الشريعة بجامعة الزيتونة، وحتى لا يظن ظان إنها مسابقة لمعرفة الفائزة في أفضل بحث دعوي أبادر إلى القول: لا تحسنوا الظن بأمثال هؤلاء الناس بعد أن تكشفت نواياهم الخبيثة، وأي شيء تعني الدعوة عندهم إذا كانوا يمنعون طالبات كلية الشريعة والدعوة من اللباس الطائفي ويفرضون عليهن السفور؟! إنها مباراة في السباحة!! نعم مباراة في السباحة للطالبات وهن عاريات وليس عليهن إلا ما يستر العورة الغليظة، وبعد إعطاء وزير الشؤون الدينية- الذي كان يشرف على المباراة ومعه جمع من كبار المسؤولين في وزارته - إشارة الانطلاق للطالبات قال مبتهجاً: (الآن تخلصت الزيتونة من عقدها).

بقي أن يعلم القارئ الكريم: أن كلية الشريعة وأصول الدين هي البقية

الباقية من جامع الزيتونة الذي تأسس في القرن الهجري الأول، وكان طوال التاريخ الإسلامي مركز إشعاع علمي في إفريقيا والأندلس وأوربا.. ويكفي أن نعلم أن من طلبته في العصر الحديث: شيخ علماء الجزائر ابن باديس، والشيخ عبد العزيز الثعالبي، وآل عاشور، وغيرهم من فحول العلماء الذين علموا الشعب التونسي المسلم العريق كيف يحارب الاستعمار الفرنسي الغاشم، ولماذا يرفض جنسيته التي تنص على أن تونس جزء من الأراضي الفرنسية، وفرنسا بلد علماني وهذا يعني التخلي عن أمور معروفة بالضرورة في الدين الإسلامي.

عجز الاستعمار الفرنسي - رغم إمكاناته الهائلة - عن النيل من صمود علماء الزيتونة، ونجح بورقية وخلفه في تحقيق الحلم الفرنسي، فشرّد علماءها، وحوّلها إلى جامعة ممسوخة، وحدد عدد القبول فيها، وفرض الاختلاط بين الجنسين، ورافق ذلك فرض السفور على الطالبات.. ثم كان أمر مباراة السباحة الآنف الذكر.

ونختم هذا الحديث عن بقايا جامع الزيتونة بالخبر الآتي الذي نشرته مجلة حقائق التونسية بعددها [٣٧٩]:

(أحيت الفنانة الصاعدة منيرة حمدي سهرة فنية رائعة!! في رحاب معهد أصول الدين التابع للجامعة الزيتونية، وفي نفس السياق وتلقياً للطلبة ضد التطرف تمتع الطلبة بمشاهدة الألعاب السحرية للمنوم المغناطيسي الشهير حمّادي بن جاب الله الفرشيبي).

وإذا كان هذا هو أمر معهد أصول الدين بالجامعة الزيتونية، فلا عجب أن

تكون حصص الرياضة مشتركة بين الجنسين في معاهد الدولة وثانوياتها، ولا بد في هذه الحصص من التعري إلا ما يستر العورة الغليظة، كما أنه لا بد من ممارسة حركات وألعاب مخجلة.

ولا عجب أن تبث القنوات التونسية الداخلية برامج جنسية ممنوعة حتى في بعض دول أوروبا الغربية.

ولا عجب أن يعتبر قانون الوظيفة العمومية اللحية وسخاً ودرناً لا يليق بمظهر الموظف التونسي.

ولا عجب من إلغاء نظام القضاء الشرعي، وحل الأوقاف الشرعية وتأميمها، وإلغاء فريضة الصيام.. كما أنه لا عجب أن يكون خلف بورقيبة أسوأ منه^(١).

٢ - المساجد: مما لا جدال فيه أن دور العبادة في الأنظمة العلمانية الغربية مستقلة لا يجوز للحكومات التدخل في شؤونها وفرض تعليمات إدارية أو دينية عليها، ولا يجوز لها التدخل في شؤون السياسة والحكم.

أما في بلادنا، فتطبق العلمانية بمفهومها الصحيح على دور عبادة غير المسلمين من النصارى واليهود وأديان أخرى ما أنزل الله بها من سلطان، وإذا

(١) كان جلّ اعتمادي فيما كتبت عن تونس على كتاب [تونس الإسلام الجريح] للأستاذ محمد مهدي مصطفى زمزمي، ولقد اهتم المؤلف بتوثيق كتابه توثيقاً جيداً، كما أنني اعتمدت على بعض المصادر التي اعتمد عليها المؤلف [وهي قليلة]، وعلى أقوال الثقات الذين أعرفهم من أهل تونس.

حدث تجاوز حكومي على أحد هذه الدور، غضبت لغضب هذه الدار أمم وأجهزة شتى من مختلف بلاد العالم، ولا تزال تستنكر وتنذر وتتوعد في السر والإعلان حتى يزول هذا التجاوز، وإنما بهذه المناسبة نذكر بنظام الامتيازات التي فرضته الدول الغربية على الدولة العثمانية، وفي ظل هذه الامتيازات تمتع النصارى في كنائسهم ومدارسهم بحقوق ما كان المسلمون أنفسهم يظلمون بها ولا تزال آثار هذه الامتيازات باقية بشكل مباشر أو غير مباشر.

أما مساجد المسلمين وأوقافهم فليس للقائمين عليها من العلماء حق في إدارتها، بل الحق كل الحق للنظام العلماني، والعاملون فيها من الخطباء والمدرسين ليسوا أكثر من موظفين يتلقون التعليمات والأوامر من مسؤولي وزارات الأوقاف، وإذا خالف أحد الشيوخ هذه التعليمات ذاق عياله مرارة الفاقة والحرمان على أقل التقديرات، وهذا يعني طرده من عمله ومنعه من الوعظ والتدريس والخطابة في المساجد، ومن المؤسف أن الشيوخ ليس لهم دخل ينفقون منه على عيالهم إلا هذا الراتب الشهري الضئيل الذي يأخذونه من وزارة الأوقاف، ولهذا فهم يفكرون ملياً قبل اتخاذ موقف يجرمهم من هذا الراتب.

الأنظمة العلمانية لا بد وأن تختار وزراء الأوقاف من نفس الفصيلة التي ينتمون إليها أو أن يكون موظفاً مطيعاً لرئيس الدولة ولو كان عنده بعض التدين، وطاعة النظام ورئيسه تقتضي محاربة كل نشاط دعوي وأخلاقي إذا كان له تأثير قوي على رواد المساجد، ونضرب المثال الآتي على ذلك:

نلاحظ أحياناً أن نشاطاً دعوياً إصلاحياً يشق طريقه إلى بعض المساجد في بلد ما دون أن يكون اتفاق مسبق بين أئمة هذه المساجد، وقد لا يعرف أحد منهم الآخر.. والشاهد هنا أن هذا النشاط يسترعي انتباه عامة الناس وخاصتهم، وتزدحم هذه المساجد والساحات المحيطة بها بالمصلين الذين يأتي عدد كبير منهم من أحياء بعيدة عن هذه المساجد، ويأتون أيضاً من مدن أخرى، ومن بين الوافدين المصلين لصوص، ومجرمون، ومدمنون على المخدرات، كتب الله جل وعلا لهم الهداية على أيدي هؤلاء العلماء الأفاضل الذين عمروا مساجدهم بالعلم والورع والتقوى، والكلام الذي يخرج من قلوب نقية طاهرة لا بد وأن يصل إلى قلوب الناس.

الأنظمة العلمانية في بلادنا لا تقبل هذه الظاهرة التي تهدد وجودها واستمراريتها، وتحشى من انتقالها إلى مساجد ومدن أخرى فيؤدي ذلك إلى فقدانها زمام الأمور، ولهذا تسارع إلى إصدار أوامرها الفورية بإبعاد هؤلاء العلماء عن مساجدهم، وتمنعهم من الوعظ والتدريس في جميع المساجد والمؤسسات العامة، وليس مهماً أن يتم هذا الإبعاد دفعة واحدة أو على مراحل، ثم تعمد -بعد دراسة متأنية- إلى تعيين صنف آخر من الدعاة في هذه المساجد من الذين لا يهتمون إلا بأنفسهم وأسرهم ورواتبهم التي يتقاضونها في نهاية كل شهر. ويتجنبون كل قول أو فتوى تغضب الجهات الرسمية المسؤولة عنهم.

وطاعة الأنظمة العلمانية والانقياد لها في تدريس القرآن والسنة والعقائد لا بد وأن يتعارض مع طاعة الله سبحانه وتعالى، كما أن الإيمان بالله الواحد الأحد لا بد

وأن يصاحبه الكفر بكل ما يعبد من دون الله من أوثان وأصنام وطواغيت.

والذي يحدث فيما بعد أن معظم الجمهور الذي كان يرتاد هذه المساجد ينفض عنها، وتختف جذوة الإصلاح في غياب دعائها الذين فرض عليهم الحصار، مع أنهم كانوا من خلال دروسهم ومواعظهم يتجنبون إثارة أية مشكلة مع الأنظمة.

ثم يتكرر هذا المشهد في مساجد أخرى، ويدرك كل من يتابع هذه الظاهرة بأن الذين يطاردون العلماء المصلحين، ويضيقون الخناق عليهم، ويبعدونهم عن مراكز الدعوة والتوجيه يحققون من وراء ذلك هدفين:

الأول: فتح الباب على مصراعيه أمام دعاة الغلو والتطرف من جهة، وأمام دعاة النفاق والمداهنة من جهة أخرى وكلاهما شر مستطير ومنزلق خطير.

الثاني: نشر الفساد والميوعة والإلحاد، وفي غياب أهل الحق والإصلاح يخلو الجو أمام دعاة الشر والإجرام، فكيف إذا كان في أجهزة النظام من يدعو إلى ذلك جهاراً نهاراً.

٣ - الديمقراطية: ممارسة الديمقراطية عند الأوربيين حق لكل مواطن، ومثل ذلك تأسيس الأحزاب والجماعات، وإصدار الصحف والمجلات، وقد تصدر هذه الصحف في أكثر هذه البلدان دون أخذ ترخيص مسبق من الحكومة.

وليس من حق أية حكومة منع تأسيس أي حزب معارض لها سواء كان تأسيسه

قائماً على أساس ديني أو غير ديني، ويستطيع هذا الحزب مقاضاة أكبر شخصية حكومية إذا أصدرت قراراً أو اتخذت إجراء يضر بمصلحة هذا الحزب، والقضاء يقول كلمة الفصل في القضية المثارة لأنه مستقل وليس للحكومة أي تأثير عليه.

وفي كل من إيطاليا وألمانيا لعب الحزبان المسيحيان دوراً مهماً في سياسة هذين البلدين، وخاصة بعد أن تمكنا في فترات مختلفة من الحصول على الأكثرية في الانتخابات [البرلمانية].

ولكن الأمر في بلادنا يختلف، لأن شريعة هذه الأنظمة لا تسمح بقيام أحزاب سياسية على أساس ديني، أما الجمعيات الخيرية فهناك قيود مشددة تصل إلى حد عدم السماح لأي منها إلا إذا كانت تخدم مصلحة النظام، وقل مثل ذلك في شأن إصدار الصحف والمجلات.

وإذا كان قد جاء حين من الزمن سمحت فيه بعض الحكومات بقيام أحزاب إسلامية، فلأن هناك معلومات مؤكدة لدى الذين منحوا الترخيص لها تشير إلى أن دور هذه الأحزاب سيكون ثانوياً ولن يمكن من الحصول على الأكثرية في الانتخابات التشريعية وعندهم من الوسائل ما يساعد على ذلك:

منها: أن الديمقراطية في بلادنا تصاغ حسب مزاج الحاكم وبطانته، وإذا تغير المزاج تغير معه قانون الانتخابات.

ومنها: أن تزوير الانتخابات هو الأصل في هذه المسألة، وعدمه هو الاستثناء.

وإذا خرق الحزب الإسلامي هذه القيود كلها وحصل على الأكثرية التي تمكنه من الانفراد في الحكم، فإن الجيش وقوات الأمن ستكون له بالمرصاد، وتتحرك على الفور، فتفرض الأحكام العرفية، وتلغي الانتخابات، وتقليل الحكومة التي أشرفت على الانتخابات، وتتقلد شؤون الحكم، وفي ظل أحكامها العرفية الجائرة تبدأ بمطاردة الإسلاميين ومنعهم من أي نشاط سياسي لأنهم أعداء ألداء لدستورهم العلماني، وموقفهم هذا يشمل جميع الأحزاب والجمعيات الإسلامية دون أي تفريق بين الذين يعملون في المجال السياسي وبين الذين يقتصر نشاطهم على الأعمال الخيرية والتعليمية.. وإذا تأكد العسكريون من نجاحهم في سحق الحزب الإسلامي فقد يسمحون بقيام ديموقراطية مزيفة لا مجال فيها لوجود أحزاب إسلامية.

ومما لا يثير أي استغراب عند الذين يتابعون الأحداث أن جميع الأحزاب والشخصيات العلمانية تتوحد فيما بينها رغم ما بينها من إحن ومكائد ضد المشروع الإسلامي، وتستقبل الانقلابات العسكرية بالتأييد لأنه سيريجها من هذا الذي تراه كالكابوس أو أشد.

من أقرب الأمثلة على ذلك ما حدث في كل من الجزائر وتركيا، والفرق بينهما أن الحزب الإسلامي التركي صابر مجامل يريد أن يمضي بتجربته إلى نهاية الشوط رغم كل ما يتلقاه من ضربات، أما الحزب الإسلامي الجزائري فكان موقفه أقرب إلى الشدة، وقابل العسكريون هذه الشدة بهمجية يعجز عنها الوصف، ولا يزالون يعتبرون معركتهم مع الإسلاميين معركة حياة أو موت ولو كان في ذلك

دمار الجزائر كلها، وما صنعه العسكريون في الجزائر غير مستبعد أن يصنعوه في كل بلد إذا تحقق عندهم بأن الإسلاميين سيصلون إلى الحكم، ومما هو جدير بالذكر أن أي انقلاب عسكري لا بد وأن يتبعه الفساد بكافة أشكاله وأصنافه، لأن جميع المنافقين وأصحاب الأهواء والمصالح ينضون تحت راية الانقلابيين المعادية للإسلام والمسلمين.

ترى هل كان قادة الأنظمة العلمانية في بلادنا على خلاف مع أساتذتهم الأوروبيين في هذه الأمور الثلاثة التي تطرفوا فيها [حجاب المرأة، المساجد، الديموقراطية]؟!.

ليس هناك من خلاف لأن الأوروبيين متفقون مع تلامذتهم على أن دول العالم الثالث لم تصل إلى المستوى الراقي الذي وصلته أوروبا، ولهذا لا بد من التشدد في تطبيق النظام العلماني، وخلال فترة استعمارهم العسكري لبلادنا كانت القوانين التي يطبقونها في المستعمرات عكس القوانين المطبقة في بلادهم.

الفصل الثاني

آثار الأزمة

– أثرها على العامة

– أثرها على الخاصة

– أثرها في الحالات الاستثنائية

أثرها على العامة

في صباح كل يوم يغادر أفراد الأسر المسلمة منازلهم التي يأوون إليها، وكل منهم يمضي إلى عمله، حيث يمضون سحابة النهار في أجواء تختلف اختلافاً كبيراً عن أجواء المنزل.

فالطلبة من الجنسين يمضون إلى مدارسهم - من الروضة إلى الجامعة-، ويتلقون فيها خليطاً من المواد المقررة نذكر منها ما يلي:

- في العلوم الفلسفية والاجتماعية: نظريات وأقوال أساطين الكفر والضلالة من أمثال: فرويد، وماركس، ودارون، وسارتر.

- وفي العلوم التاريخية والسياسية: تقديس الأوطان والأقوام، وإبراز الآثار الجاهلية مع الدعوة إلى تعظيمها وفي المقابل عرض أحداث التاريخ الإسلامي عرضاً مشوهاً ممسوخاً.

- الموسيقى والرسم، وتدريب الطلبة على الآلات المحرمة، وعلى رسم ذوات الأرواح، وعدد ساعات هاتين المادتين أكثر من الساعات المقررة لمواد التربية والعلوم الإسلامية.

- واختلاط الجنسين لا يقلل فساداً عن آثار المواد المقررة على عقول الطلبة، لأنه تدريب عملي على وجوب التمرد على القيم والأخلاق الإسلامية، وما هو المنتظر من مراقب ومراقبة عندما يجلسان على مقعد واحد بضع ساعات من

النهار؟! وقد ينتقل هذا الاختلاط إلى خارج المدارس والجامعات بناء على مواعيد مسبقة ومحرمة.. ثم يقال لهؤلاء المراهقين: هذه هي الحضارة والتقدمية، وليس هناك أي مبرر لفصل البنات عن الأولاد، ولا تصغوا لأقوال وهرطقات الرجعيين المتخلفين!!.

أما صاحب المنزل فحالته كحال أبنائه إن كان مدرساً، وإن كان موظفاً في غير سلك التعليم فتواجهه مشكلتان:

المشكلة الأولى هي الاختلاط، كأن يكون نصيبه الجلوس في غرفة واحدة مع زميلة له في العمل، وقد تحدثنا عن هذه المسألة فيما مضى.

والمشكلة الثانية: هي الترقية، والتي لا يحصل عليها إلا إذا كان حسن السيرة والسلوك، وتقدير ذلك لرئيسه وحده لأنه المكلف بكتابة تقرير سري عنه، وإذا علمنا أن الوظائف المرموقة محرمة على أهل الدين والدعوة والاستقامة -إلا ما شذّ وندر-، وهذا يعني أنه لن يترفع إلا إذا كان يجيد فن التملق والنفاق وتنفيذ كل ما يؤمر به.

وإذا كان الموظف من العاملين في السلك العسكري، فحالته أشد سوءاً من أحوال العاملين في السلك المدني، وذلك لأن عالم العسكريين يسوده القهر والاستبداد، ووجوب تنفيذ الصغار لأوامر الكبار فور صدورهم دون أدنى تردد أو تدمر، ولا بأس أن يعترض بعد التنفيذ إذا لحقه ظلم، وكان في ذلك مخالفة للنظام العسكري، ولكن لمن يعترض؟! وهل يضمن أن لا تناله عقوبة أشد بعد

هذا الاعتراض ولا سيما إذا كان الطلب سيقدم إلى الخصم المشتكى منه، والخصم يرفعه لمن هو أعلى منه؟!.

وقد يتضمن الأمر المطلوب تنفيذه فوراً الإقدام على تنفيذ جريمة أو ارتكاب معصية كبيرة، والأمثلة على ذلك كثيرة، ومن بينها الأوامر الصادرة بتدمير حي من الأحياء، أو تعذيب المعتقلين ليعترفوا بجريمة لم يرتكبوها، وما إلى ذلك من مجازر وفظائع غير خافية على أحد، ومن يمتنع عن تنفيذ هذه الأوامر سيحاكم بتهمة الخيانة العظمى أو يقتل من غير محاكمة.

ومن جهة أخرى فإن العسكري مطلوب منه في كثير من الحالات النوم في ثكنته العسكرية ليكون جاهزاً عند الحاجة إليه، وهذه مشكلة مزدوجة، وذلك لأن العسكري المتمسك بدينه المحافظ على صلواته سينظر إليه زملاؤه ورؤساؤه نظرة شك وريبة حتى ولو لم تكن له انتماءات حزبية، وهذا هو الحال في كثير من بلداننا، فأى حياة سيحياها هذا الجندي المؤمن إذا كان كل من حوله غرباء عنه بأخلاقهم الهابطة وألفاظهم البذيئة، والجانب الآخر من هذه المشكلة تتمثل في الآثار السلبية الناجمة على زوج العسكري وأبنائه بسبب غيابه المتكرر عن البيت.

وثالثة الأثافي في هذه القضية أن عدد الموظفين العاملين في السلك العسكري ليس قاصراً على الجنود المتطوعين، وإن كان هذا العدد بحد ذاته كبيراً، فكل مواطن إذا بلغ سنّاً معيناً يجب عليه أن يخدم مدة معينة في الجيش تتراوح من سنة ونصف إلى سنتين، وقد يدعى بعد انتهاء خدمته عند الحاجة إليه، فيرافقه شعور

دائم بأن الاستبداد العسكري حليف له لا ينفك عنه إلا إذا هرم وشاخ.

وإذن لابد لمن يعيش في هذه المجتمعات - مدنياً كان أو عسكرياً - من التأثر بها، قلّ هذا الشيء أم أكثر، فالإنسان ابن بيئته كما يقولون، ومن المكابرة أن يزعم زاعم أنه قد حصّن نفسه وأسرته من عدوى هذا المرض، وليس من المعقول والمقبول أن نقول لهؤلاء الطلبة والموظفين: إذا ولجتم أبواب منازلكم مساءً أبعدوا عن تفكيركم كل ما يتعلق بعملكم اليومي، وألقوا على عتبات بيوتكم كل ما تعلمتموه في نهاركم وانتقلوا إلى عالم آخر.. عالم الأسرة المسلمة التي تتأسى بأسر سلف هذه الأمة في خلقها وآدابها وفضلها. إن ذلك من المستحيل لأن الولد سوف يسأل أباه: هل صحيح أن الإنسان كان قرداً في العصور الغابرة، ثم تطور مع مرور الزمن حتى أصبح في شكله الحالي؟! والمراهق لابد وأن يفكر بما كان بينه وبين زميلته من أحاديث، ولابد أن يسأل نفسه: لماذا كنت خجولاً حياءً أمامها، وربما أعد لكل شيء عدته إذا عادت في اليوم الثاني إلى الحديث عن الموضوعات نفسها التي كانت تدندن حولها.

والفتى الصغير سيعود إلى منزله ليشتم إخوانه - إذا اختصم معهم - بشتائم جديدة ما كان يعرفها من قبل. وصاحب المنزل قد ينادي زوجته فينسى ويذكر اسم زميلته في العمل بدلاً من اسمها، فتقع الواقعة، وتنفجر المرأة غضباً وحنقاً، وما أسهل غضب المرأة بل وجنونها في مثل هذه الحالات، وقد تنعكس القضية فتذكر المرأة عندما تنادي زوجها اسم زميلها في العمل.. وإذا سلم المنزل من

هذا وذاك، فلن يسلم من الشيطان المفسد الذي يحتل مكان الصدارة في غرفة جلوس العائلة، أعني بذلك [التلفاز]، وما يبثه من برامج خليعة ماجنة، وقد أشرنا إلى شيء من ضرره فيما مضى.

أثرها على الخاصة

ليس مستغرباً أن يتأثر عامة الناس بهذا الغزو المنظم الذي اجتاحت بلداننا وأقوامنا، ولكن المستغرب أن يتأثر به بعض الذين تصدوا لحربه وتحذير الناس من آفاته، وسأعرض فيما يلي بعض المواقف المؤسفة التي يظهر من خلالها تراجع نفر من المنسويين للدعوة عن المهمة التي أوجبها الله عليهم:

- بين المنسويين للدعوة من يستقبح العمل الدعوي في ميادين السياسة، لأنها -على حد زعمه- مشغلة للمسلم عن واجباته نحو خالقه ودعوته، وإذا حاججته في وجوب إنكار المنكر جاءك بكلام مضطرب متناقض.. ولكن هذا الشيخ الزاهد يلج السياسة من أسوأ أبوابها استجابة لأوامر وتعليمات السلطان، وتراه يخوض معركة طاحنة ضد الأمرين بالمعروف والناهيين عن المنكر من العلماء والدعاة، ويتناسى قوله بالأمس: إن السياسة تفسد صفاء العبادة، كما يتناسى نقده المرير للدعاة الذين يسقطون في أحوالها.. ثم تتطوع بطانة السلطان فيما بعد بنشر أخبار الصفقة التي تقاضاها الشيخ العابد الزاهد مقابل المعركة السياسية التي اقتحم غمارها بجدارة.

- وبين المنسويين للدعوة من يكذب على رسول الله ﷺ، فينسب إليه أحاديث ليس لها أصل، زاعماً أن هذه الأحاديث، وإن كانت موضوعة فهي خير مادة لترغيب الناس بالإسلام، وترهيبهم من المعاصي والمنكرات، ولعمر الحق إن عمل هؤلاء المفترين من أكبر المنكرات لأن الكذب كذبٌ سواء كان للدفاع عن

الإسلام أو عن المذهب أو الحزب، وليس الكذب على رسول الله ﷺ مثل الكذب على غيره، ومن دأب على الكذب فسوف يكتب عند الله كذاباً.

وليس أمر [القصاصين] في تاريخنا الإسلامي خافياً على أحد من أهل العلم، وقد كفانا أهل الحديث مؤونة هتك أستارهم، وكشف عوارهم، وبيان فساد أخلاقهم، وقريب الشبه بالقصاصين في هذا العصر نفر من الناس اعتادوا اختلاق الدعايات والإشاعات المغرضة ضد علماء الإسلام انتصاراً لأهوائهم وأحزابهم أو مقابل منافع دنيوية يحصلون عليها ممن له مصلحة في الإساءة للإسلام وأهله.

- وبين المنسوين للدعوة من ينصب نفسه أستاذاً لتدريس التوحيد، والدعوة إلى إصلاح الاعتقاد، وإقامة النكير على أصحاب البدع وعلى كل من انحرفت عقائدهم. ونحن نوافق هؤلاء الناس على أن ما يدعون إليه من أجل العلوم وأهمها وأنفعها، وإذا صلح الاعتقاد استقامت سائر أمور المسلم في دنياه وآخرته، ولكن لا بد أن يكون هذا الداعية صادق النية، وليس هناك تناقض بين قوله وفعله.

إننا نرى نماذج من هؤلاء يفجرون عند الخصومة، وما أكثر الخصومات التي يفتعلونها، وبينهم من يؤتمن على مال أخيه أو سره فيخونه، وبينهم من يتحدث فيكذب، ثم يكذب ولا يخشى الله سبحانه وتعالى، وبينهم من يعد فيخلف الوعد، وهذه الخصال الثلاث من أهم خصال المنافقين، كما قال ﷺ: «آية المنافق ثلاث:

إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان»^(١).

وفي حديث آخر عن عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ قال: «أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق: إذا أؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»^(٢).

فكيف يقبل الناس دروس هذا الشيخ ومواعظه، وهم يرونه يحدث فيكذب، ويعد فيخلف، ويخاصم فيفجر، ويؤتمن فيخون؟!.

وبين هؤلاء من يصنف الكتب عن الولاء والبراء، وتقرر كتبه هذه في المعاهد والجامعات، ولكن واقع حاله يخالف ما قرره وأكد عليه في مؤلفاته، فهو من الذين يوالون الظالمين، ويتسكع على أعتابهم، ويتودد إليهم بكتابة التقرير، والتجسس على إخوانه الدعاة، ومحاولاته الدائمة في الطعن بالجماعات الإسلامية والنيل منها مستخدماً كافة السبل غير المشروعة.

مثل هذا المدرس لن يكون موضع احترام الطلبة وتقديرهم لأن دروسه حجة عليه، بل وماذا يبقى له من صلاح الاعتقاد إذا خالف في سلوكه وأعماله عقيدة الولاء والبراء، وارتكب في تجسسه كبيرة من الكبائر لا يفعلها إلا من كانت فيه خصلة من النفاق؟!.

(١) أخرجه البخاري، ومسلم، كتاب الإيمان.

(٢) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب خصال المنافق.

وبين هؤلاء المدرسين من يهدر الساعات الطوال في تدريس الشرك وأنواعه، وهم منغمسون بشيء واضح من شرك الطاعة، طاعة شيوخهم أو حكامهم في معصية الله، وفي أمور هي حق من حقوق الله وحده لا شريك له.

وإذا كنا في هذا المجال نتحدث عن الذين تخالف أقوالهم أفعالهم، وبسبب هذه المخالفة ينفر الناس منهم وينفضون من حولهم.. فهناك والحمد لله رجال صادقون أمناء يدعون إلى تصحيح الاعتقاد، والتزام ما كان عليه رسول الله وأصحابه صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، ويلتفت الناس حولهم عندما يجدون أفعالهم تصدق أقوالهم.

- وبين المنسويين إلى الدعوة من يتعصبون تعصباً ذمياً لأوطانهم أو لأقوامهم أو لأحزابهم أو لزعمائهم، ويختلط هذا التعصب عندهم بالإسلام والعمل الإسلامي فيحاولون إيجاد مبرر شرعي أو أممي له.

ومن مظاهر هذا التعصب أنهم لا يقبلون التعرض لبلدانهم بأي نقد مهما كان شكله، وإذا كانت المسألة التي تعرض لها الناقد من أكبر أنواع الظلم وعجز المدافعون عن إيجاد مبرر لها قالوا: لقد ضخم الناقد المسألة، وأعطاهم بعداً لا نعتقد أنه كان وارداً عند المسؤولين، وأصبح الناس في بلدنا مقتنعين أن الناقد لا يريد غير النقد والتشهير، وهذه القناعة تسيء إلى الإسلاميين بشكل عام.. لكن هذا الناقد الذي يتعبد الله سبحانه وتعالى بفريضة إنكار المنكر لو قال الكلام نفسه عن بلد آخر غير بلدهم لشدوا على يده، ودعوا له بدوام السداد والتوفيق.

ومن مظاهر هذا التعصب أيضاً أنه عندما ينشب صراع بين بلد وبلد آخر، أو بين حزب وحزب آخر ينحاز كل طرف من الإسلاميين تلقائياً لأهل بلده أو لحزبه، دون أن يتبينوا الحق من الباطل.. ويسأل صاحب الفطرة السليمة هذا الطرف أو ذلك: ما الذي دفعكم إلى مقاطعة من كانوا عندكم بالأمس ملء السمع والبصر؟ وكيف تستجيبون لأوامر وتعليمات مخالفة لشرع الله؟! جاؤوك بأقوال متضاربة متناقضة.

هذا هو حال بعض المنسوبين إلى الدعوة، وأحسب أن عدد الذين يتعصبون لبلدانهم كبير، ومن بين هذا العدد كثير ممن هم مظنة صلاح وخير.

وهناك صنف آخر من الدعاة كانوا يعتبرون بعض الأمور من المنكرات - وهي كذلك - وقيمون الدنيا ولا يقعدونها على فاعلها، وقد يقاطعونه ويحذرون الناس منه.. ولكن انتشار هذه المنكرات، وإصرار السلاطين على فرضها وإشاعتها رضي من رضي وغضب من غضب، هذا وذاك جعل هؤلاء الدعاة يغيرون موقفهم، وبات بعضهم يشكك بقضايا معلومة من الدين بالضرورة، ولو بُعث شيوخهم من قبورهم ورأوا ما آلت إليه أوضاع طلبتهم لتبرؤوا منهم، وسبحان الذين يُغير ولا يتغير، ونسأله تعالى أن لا يجعل مصيبتنا في ديننا.

آثارها في الحالات الاستثنائية

تمر ببعض بلداننا حالات استثنائية يتولى العسكريون فيها شؤون الحكم، مدعين أن البلد على أبواب حرب أهلية يُذكي نارها طائفة من الإرهابيين الذين يريدون أن يعودوا بالناس إلى العصور الرجعية المظلمة.

الإسلاميون هم هذه الطائفة التي يستهدفها العسكريون وأشباه العسكريين، وقد عودونا أنهم لا يقومون بانقلاباتهم إلا عندما يقوى شأن الإسلاميين، ويشدد عودهم في ظل هامش الحرية المسموح به في بلادنا، وعندما ينجح الانقلاب - ولا بد له أن ينجح إذا كنا نحن العدو المستهدف - تكون قوائم الأعداء وعناوينهم معدة سلفاً، فبعضهم يقتل تحت أي ذريعة، وبعضهم يهرب قبل أن يصلوا إليه، ومعظم الباقين يدخلون السجون والمعتقلات. وبسبب كثرتهم تبنى لهم سجون جديدة، أو يزجون بهم في صحراء واسعة محاطة بالأسلاك الشائكة وقوات عسكرية للحراسة والتحقيق والتعذيب.

وفي ظل هذه الأوضاع الجديدة يفتقد الناس الدعاة المصلحين، ويضعف الإقبال على المساجد، ويصبح المعروف منكراً والمنكر معروفاً، لأن [الجنرالات] الجدد يتولون بأنفسهم أو عن طريق شيعتهم ووكلائهم نشر الفساد والرشوة والمخدرات، وتكثر السرقات، ويُفتقد الأمن ولا يأمن المواطن على عرضه وماله ونفسه.

مثال من الجزائر:

زرت الجزائر في شهر رمضان المبارك الذي سبق الإضراب والانتقال العسكري، ومن خلال ترددي على عدة مساجد في صلاة التراويح ظننت أن الجزائريين كلهم برجالهم ونسائهم وفتيانهم قد انتقلوا إلى المساجد وأقاموا فيها، وعندما تتحدث إليهم تسمع منهم التصميم على أن دولة الإسلام في بلدهم قادمة، وأن عهد العلمانيين قد ولى إلى غير رجعة.

قام العسكريون بانقلابهم وأطاحوا بالرئيس الجزائري الشاذلي بن جديد، ثم ألغوا الانتخابات التي حصلت جبهة الإنقاذ الإسلامية على الأكثرية المطلقة فيها، ورافق ذلك اعتقالات واسعة النطاق في صفوف الإسلاميين.. ثم تطورت الأمور تطوراً مأساوياً بعد إعلان عدد من المجموعات الإسلامية الجهاد ضد النظام، وانقسام هذه المجموعات على نفسها.

وسأنقل فيما يلي فقرات نتبين من خلالها ما آل إليه الوضع في الجزائر بعد خمسة أعوام أو تزيد قليلاً:

- (أكتب لكم هذه الرسالة من الجزائر البلد الجريح، وأنتم تعلمون ضائقة العيش هنا ربما أكثر منا، ليس علينا أن نكتم ضعف قوتنا وقلة حيلتنا وهواننا على الناس، فالمواطن البسيط يعيش على الأرض وهو مكره، وبطن الأرض خير لنا من ظهورها، وبصورة مبسطة إذا قيل لكم إن رجلاً يعيش ليأكل، ويعيش في حالة من الفزع والرعب، فلا يأمن على ماله كما لا يأمن على نفسه وأولاده، فهل

تسمى هذه حياة؟!).

- (في مكالمة هاتفية سأل أحد الأخوة صديقاً له في الشرق الجزائري: أين تصلي الجمعة؟ فذكر له الصديق اسماً من الأسماء التي يستغرب اعتلاءها المنابر.. وعندما قال له الأخ أما وجدت غيره؟ أجابه صديقه: أنتم الذين تعيشون في الخارج مهما تابعتم أخبارنا لا تستطيعون تقدير المأساة التي نعانيها، والله يا أخي لو أجد عذراً شرعياً يعفيني من صلاة الجمعة لفعلت فضلاً عن الصلاة عند هذا أو ذلك، لقد أمتت المساجد وتوحدت الخطب فموضوع هذا مثل موضوع ذلك).

- قال أحد أهل مدينة البليدة: (زرت مدينتي البليدة بعد انقطاع عنها دام خمس سنين، فوجدت كل شيء فيها قد تغير، لقد دخلت المساجد وأنا أمني نفسي بلقاء بعض من أعرف من الأحبة، وأقول البعض لأنني كنت قد سمعت عن قتل وسجن كثير منهم، وحتى هذا البعض لم أجده.. سبحان الله كيف يجد المرء نفسه غريباً بين أهله وذويه، وفضلاً عن ذلك فالمساجد تفتح قبل الصلاة بدقائق، وتغلق أيضاً بعد الصلاة بدقائق، وكنت ألمح بين المصلين وجوهاً نكدة، وعيوناً يتقاطر منها الشرر).

خرجت من المسجد وأنا خائف من رواده الجدد الذين لا تظهر على وجوههم سمات أهل الخير، وسلكت الشارع المؤدي إلى منزلنا، فوجدته غير آمن، وتكاد لا ترى فيه إلا سيارات قوات أمن الدولة الذين يوقفون بعض المارة ويصطحبونهم معهم ثم تنقطع أخبارهم فيما بعد، وقد تلقى جثثهم في الشارع نفسه.

أما اهتمامات الناس ففي لقمة العيش التي باتت عسيرة المنال على أهل مدينة فطروا على التجارة، ومما لفت نظري أن معظم تجار المدينة صاروا فقراء لأن أبواب التجارة قد أوصدت في وجوههم، واحتكرها [الجنرالات] وأقرباؤهم وأصدقاؤهم.

وكم ألمي كثرة المتسولين في البلدة، وزاد من ألمي أنني أعرف بعضهم، وأعرف عنهم الغنى والعفة والكرامة.. وما كنت أتصور أن هؤلاء الناس سيأتيهم يوم يقفون فيه هذا الموقف الذليل).

(وقال قادمون من مدن أخرى: هناك أحياء عريقة في هذه المدن انتشرت فيها المخدرات بشكل لم يكن مألوفاً ولا معروفاً من قبل، ومن أبرز من يتناولها ويتاجر بها رجال الشرطة الذين دأبوا على ارتياد مقاهي معينة لترويج هذه السموم المدمرة.

أما السرقة فقد أصبحت ظاهرة عامة ملفتة للنظر، ويقول بعض كبار العسكريين لأقربائهم: معظم هذه السرقات يقوم بها أعضاء [الميليشيات]، التي شكلها النظام، ويضاف إلى ظاهرة السرقة ظاهرة أخرى هي التبرج والفجور والاعتداء على النساء، أما الرجال الذين عهدناهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر فهم بين قتيل وسجين ومطارد مقهور)^(١).

(١) مجلة السنة، العدد الرابع والستون، شوال ١٤١٧.

لم يعد أحد في الجزائر آمناً لا في منزله، ولا في مسجده، ولا في عمله، ولم يعد الناس في العالم كله يسمعون عن هذا البلد إلا أخبار: الذبح، والمتفجرات، والسيوف، والخناجر، والفؤوس، ولم يعد سراً أن قوات الأمن أول المتهمين بكثير من هذه المجازر التي ترتكب.

هذه الحالات التي من المفترض أن تكون استثنائية؛ طال أمدها، وكثر ضررها، وأصبحت دائمة، والانفراج حالة استثنائية، ومن الأمثلة على ذلك: أن الجزائر لم تشهد عهداً تحترم فيه حريات المواطنين إلا العهد الذي سمح فيه الرئيس الأسبق بن جديد بتشكيل أحزاب وكانت مدته بمنغصاته حوالي ثلاث سنين، أما بقية سنوات عهد ما يسمى بالاستقلال فقد كان حالة استثنائية، وكذلك كان شأن تونس طوال عهد الاستقلال - كما رأينا فيما مضى -، أما المتضرر الأكبر في العهد الاستعماري في كل من الجزائر وتونس فهم العلماء وتلامذتهم والمتأثرون بهم من عامة الناس.

أما ليبيا فأمرها عجيب، طوال عهد القذافي الذي زاد على ثلاثين عاماً، ففي كل يوم قرار جديد، ولا بد لهذا القرار الذي يصدره الرئيس من خيمته أن يصدر باسم مؤتمر الشعب العام، ومن هذه القرارات أن الذي يطلق لحيته التزاماً بالسنة يسمونه [زنديقاً]، والزنديق الحقيقي الذي يغيّر ويبدّل في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ يسمونه مؤمناً وإماماً في الدين، وأن الشباب الذين يداومون على صلاة الجماعة في المساجد - وبشكل أخص صلاة الفجر - لا يأمنون على أنفسهم،

وأن أولياء أمور الفتيات لا يستطيعون منعهن من التجنيد أو من الالتحاق بالكليات العسكرية حيث لا بد فيها من الاختلاط ومن المبيت في ثكنة واحدة لمدة طويلة ومن غير محرم شرعي، بل وإن طرح مسألة المحرم الشرعي ما هو إلا تفكير رجعي استعماري متخلف يجب سحقه والقضاء التام عليه وعلى كل من يفكر به.

نعود إلى السؤال السابق: ما هو المتوقع في ظل هذه الأوضاع الاستثنائية التي لم تعد قاصرة على تونس والجزائر وليبيا؟! والله غالب على أمره:

عندما بطش عبد الناصر بطشيه الصغرى والكبرى [١٩٥٤ - ١٩٦٥] ظن أنه ملك ناصية الأمور تماماً بيده، وحدثه شيطانه أن حملة مشاعل الهدى والإصلاح لن ترتفع لهم راية في وادي النيل إلى الأبد، فجاءه الله جل وعلا من حيث لم يحتسب ولم يقدر، ورأى بعينه بداية الصحوة الإسلامية بين عامي ١٩٦٨ و ١٩٧٠، ثم عادت الصحوة بعد هلاكه أقوى مما كانت عليه قبل مجيئه إلى السلطة، ولا تزال في نمو وتكاثر والحمد لله.

في الحسابات المادية المجردة كان من حق عبد الناصر ومن سبقه أو لحقه الاعتقاد بأن من يسمونهم [بالرجعيين] لن يعودوا إلى الظهور مرة أخرى، وإن عادوا فسوف تكون عودتهم ضعيفة باهتة، ولن يستطيعوا تقويض هذه الصروح العلمانية التي بناها الأباطرة.

يعيش الطغاة أيام حكمهم وكأنهم خالدون مخلدون، ويصدّقون الأقوال الكاذبة التي يسمعونها من بطانة السوء التي تحيط بهم، ويصدق فيهم قول الله تعالى على لسان زعيمهم وقائدهم الأول فرعون: ﴿مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾.

ولكن كيد الشيطان كان وسيقى ضعيفاً أمام كيد الله تعالى، ويدرك الطغاة ضعفهم وهوانهم في الأيام أو الساعات القليلة التي تسبق هلاكهم عندما يسلط الله عليهم مرضاً خبيثاً يفتك بهم ويحولهم من حال إلى حال آخر لا يحسدون عليه، أو عندما يدبرّ ناس من بطانتهم انقلاباً ضدهم.

ومن مظاهر ضعف كيد الشيطان وحزبه هذه الصحوّة الإسلامية التي جاءت رغم أنف: أتاتورك، وعبد الناصر، وبورقيبة، وميشيل عفلق.. ورغم أنف قادة الشرق والغرب، وكل الذين لا يريدون أن لا ينطلق المارد الإسلامي من عقاله.

ومن أجل أن توضع الأمور في نصابها الصحيح، وحتى لا تتكرر الأخطاء نفسها، فإنني سأبين فيما تبقى من هذا البحث أهمية الأخلاق في التربية الإسلامية، وفي بناء جيل يحقق لأمتنا ما تصبو إليه من عز وسؤدد.

الفصل الثالث

صور من أخلاق رسول الله ﷺ

قبل البعثة وبعدها

– صور من حياة الرسول ﷺ وأصحابه قبل البعثة

– إسلام أبي بكر

– من أخلاق النبي ﷺ بعد البعثة

– من أقوال العلماء في محاسن الأخلاق

صور من حياة الرسول ﷺ وأصحابه قبل البعثة

كان العرب قبل الإسلام طبيعة قابلة للخير، معطلة عن فعله، فلما بعث الله محمداً أخذوا هذا الهدى العظيم بتلك الفطرة الجيدة، فاجتمع لهم الكمال بالقوة المخلوقة فيهم، والكمال الذي أنزل الله إليهم^(١).

وكان السابقون الأولون إلى الإسلام من أفضل العرب في حب الخير، وزكاة النفس، وطهارة القلب، ومن أشدهم كرهاً للخصال السيئة مثل المكر والغدر والغل والحسد.

عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: «سئل رسول الله ﷺ: أيُّ الناس أكرم؟ قال: أكرمهم عند الله أتقاهم. قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: فأكرمُ الناس يوسفُ نبيُّ الله، ابنُ نبيِّ الله، ابنُ نبيِّ الله، ابنُ خليل الله. قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: فعن معادن العرب تسألوني؟ قالوا: نعم. قال: فخيركم في الجاهلية خيركم في الإسلام إذا فقهوا^(٢).

من فقه الحديث:

١ - يتكرر هذا الأسلوب في الحديث النبوي، فتارة يسأل الرسول أصحابه صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، وتارة أخرى هم الذين يسألونه،

(١) هذا القول لابن تيمية في كتابه اقتضاء الصراط المستقيم.

(٢) البخاري، كتاب المناقب، وكتاب التفسير.

والسؤال بحد ذاته يجلب الانتباه، ويحرك الأذهان، وكان من الممكن أن يخصص الأصحاب سؤالهم: أي معادن العرب أكرم وأفضل؟ ولكن التعميم أكسبهم فوائد أخرى: كصلة التقوى بالكرم، وكون نبي الله يوسف عليه السلام من أكرم الناس.

٢ - المعادن: جمع معدن وهو الشيء المستقر في الأرض، فتارة يكون نفسياً وتارة يكون خسيساً، وكذلك الناس. ووجه التشبيه أن المعدن لما كان إذا استخرج ظهر ما اختفى منه ولا تتغير صفته، فكذلك صفة الشرف لا تتغير في ذاتها، بل من كان شريفاً في الجاهلية فهو بالنسبة إلى أهل الجاهلية رأس، فإن أسلم استمر شرفه، وكان أشرف ممن أسلم من المشروفين في الجاهلية.

٣ - إن الشرف الإسلامي لا يتم إلا بالتفقه في الدين، فمن لم يسلم فلا اعتبار به سواء كان شريفاً أو مشروفاً، وسواء تفقه أو لم يتفقه.

٤ - المراد بالخيار والشرف كل من كان متصفاً بمحاسن الأخلاق، كالكرم والعفة، والحلم وغيرها، ومتوقفاً لمساويها: كالبخل، والفجور، والظلم، وغيرها^(١).

وعن مكانة العرب بين الأمم قاطبة، ومكانة رسول الله ﷺ بين العرب نذكر هذين الحديثين:

عن واثلة بن الأسقع يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله اصطفى

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري: (٦/٦٥٧)، لابن حجر العسقلاني، دار الكتب العلمية.

كِنَانَةَ من ولد إسماعيل واصطفي قريشاً من كنانة، واصطفي من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»^(١).

وعن المطلب بن أبي وداعة عن العباس قال: بلغه ﷺ بعض ما يقول الناس.
قال: فصعد المنبر فقال:

«مَنْ أَنَا؟ قالوا: أنت رسول الله. فقال: أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب. إن الله خلق الخلق فجعلني في خير خلقه، وجعلهم فرقتين، فجعلني في خير فرقة. وخلق القبائل، فجعلني في خير قبيلة. وجعلهم بيوتاً، فجعلني في خيرهم بيتاً. فأنا خيركم بيتاً وخيركم نفساً»^(٢).

قال الترمذي: هذا حديث حسن.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (إن الذي عليه أهل السنة والجماعة: اعتقاد أن جنس العرب أفضل من جنس العجم.. وأن قريشاً أفضل العرب. وأن بني هاشم أفضل قريش، وأن رسول الله ﷺ أفضل بني هاشم، فهو: أفضل الخلق نفساً، وأفضلهم نسباً.

وأفضل الجنس لا يستلزم فضل الشخص، فرب حبشي أفضل عند الله من

(١) صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي، وصحيح الترمذي، أبواب المناقب، باب ما جاء في فضل النبي صلى الله عليه وسلم، الحديث رقم (٣٨٦٩).

(٢) الترمذي، كتاب المناقب، باب فضل النبي، وأحمد: (١/٢١٠)، الحديث رقم (١٧٨٨) طبعة المعارف، تحقيق أحمد شاكر. وقال: إسناده صحيح.

جمهور قريش.

ويجب على المسلم إذا نظر في الفضائل أو تكلم فيها أن يسلك سبيل العاقل الدّين، الذي غرضه أن يعرف الخير، ويتحراه جهده، ليس غرضه الفخر على أحد، ولا الغمص من أحد.. وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «يا فاطمة بنت محمد، لا أغني عنك من الله شيئاً، يا عباس عم رسول الله، لا أغني عنك من الله شيئاً، يا صفية عمة رسول الله، لا أغني عنك من الله شيئاً، سلوني من مالي ما شئتم»، كان في هذا تنبيه لمن انتسب لهؤلاء الثلاثة أن لا يغتر بالنسب، ويتركوا الكلم الطيب، والعمل الصالح»^(١).

ولم يكن أحد من قريش ينكر الخصال الحميدة التي امتاز بها محمد ﷺ عن أقرانه، فخديجة رضي الله عنها حين أبت الزواج من أعيان قومها وأغنيائهم، واختارت محمداً ﷺ كانت تدرك برجاحة عقلها وبعد نظرها أن هذا الشاب الفقير لا يعلو عليه أحد من قريش، وأن الأخلاق أفضل من المال والجاه.

عن عروة بن الزبير عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: «أول ما نزل الوحي على رسول الله ﷺ عاد إلى منزله خائفاً يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، فقال: زملوني زملوني، فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر: لقد خشيت على نفسي، فقالت خديجة: كلا، والله ما يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري

(١) اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم: (١ / ٣٧٠)، مكتبة الرشد، الرياض.

الصَّيْفَ، وتُعِينُ على نوائب الحق.. وفي روايات أخرى صحيحة: وتصدق الحديث، وتؤدي الأمانة»^(١).

عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لما نزلت ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ ﴿صعد النبي ﷺ على الصفا فجعل ينادي: يا بني فهر، يا بني عدي -لبطون قريش- حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش، فقال:

أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟ قالوا: نعم ما جربنا عليك إلا صدقاً. قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد. فقال أبو لهب: تباً لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟ فنزلت ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ، وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾﴾»^(٢).

مهد ﷺ للخبر العظيم الذي جمعهم من أجله بقوله: «أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟!» أراد بذلك تقريرهم بأنهم يعلمون صدقه إذا أخبر عن الأمر الغائب^(٣)، ومع إقرارهم بصدقه فقد أوقعوا أنفسهم في تناقض مخجل عندما أعرضوا عن دعوته، وقال قائلهم: تباً لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا؟.

(١) أخرجه البخاري في التفسير، وكيف كان بدء الوحي، انظر فتح الباري.

(٢) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب وأنذر عشيرتك الأقربين.

(٣) انظر فتح الباري: (٨ / ٦٤٤)، السلفية.

وكان أبو سفيان بن حرب من ألد أعداء رسول الله ﷺ، ولم تمنعه هذه العداوة من الاعتراف بصدق رسول الله ﷺ وأمانته في رده على أسئلة هرقل:

- (سأل هرقل: كيف نسبه فيكم؟).

- قال: هو فينا ذو نسب.

- هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟.

- قلت: لا.

- قال: فهل يغدر؟.

- قلت: لا.

- قال: ماذا يأمركم؟.

- قلت: يقول: اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة. ويقول أبو سفيان: فوالله لولا الحياء من أن يأتروا علي كذباً لكذبت عنه^(١).

وفي هذا دليل على أن العرب في جاهليتهم كانوا يأنفون من الكذب. قال ابن حجر العسقلاني:

(١) فقرات من حديث أخرجه البخاري في صحيحه، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ.

وفي قوله -أي قول أبي سفيان- يأتروا دون قوله (يكذبوا دليل على أنه كان واثقاً منهم بعدم التكذيب أن لو كذب لاشتراكهم معه في عداوة النبي ﷺ، لكنه ترك ذلك استحياءً وأنفة من أن يتحدثوا بذلك بعد أن يرجعوا، فيصير عند سامعي ذلك كذاباً.

وفي رواية ابن اسحاق التصريح بذلك ولفظه: فوالله لو قد كذبت ما ردوا عليّ ولكني كنت امرءاً سيذاً أتكرم عن الكذب، وعلمت أن أيسر ما في ذلك إن أنا كذبت أنه يحفظوا ذلك عني ثم يتحدثوا به فلم أكذب^(١).

ليت الذين هم اليوم على مثل عقيدة ودين أبي سفيان في جاهليته يتعاملون مع الإسلاميين بمثل الطريقة التي تعامل فيها أبو سفيان، مع أنهم سادة وملكهم أكبر وأعظم مما كان عليه أبو سفيان، لكنهم لا يتورعون عن الكذب وعما هو أخط منه.

إن طغاة عصرنا يمارسون أبشع أنواع الإرهاب ضد الإسلاميين، ثم يزعمون بأننا إرهابيون ويطلقون القول بذلك دون أي استثناء... إنهم يسفون في أكاذيبهم، ويشاركونهم في هذا الخلق المشين نوابهم ومساعدوهم، والقائمون على شؤون إعلامهم، وكل لا يخجل من الآخر.

وليت بعض المنسوبيين إلى الدعوة يتخلقون بمثل أخلاق أبي سفيان،

(١) فتح الباري بشرح البخاري: (٣٧/١) البابي الحلبي.

فلا يفجرون في خصومتهم مع إخوانهم، ولا يختلقون الأكاذيب
ضدهم، ولا يخونون فيما أئتمنوا عليه.

إسلام أبي بكر

قال ابن إسحاق عن إسلام أبي بكر رضي الله عنه:

(كان صاحب رسول الله ﷺ قبل البعثة، وكان يعلم من صدقه، وأمانته، وحسن سجيته، وكرم أخلاقه، ما يمنعه من الكذب على الخلق، فكيف يكذب على الله؟ ولهذا بمجرد ما ذكر له أن الله أرسله بادر إلى تصديقه ولم يتلعثم، ولا عكم)^(١).

كيف يكذب على الله من لا يكذب على الخلق؟! بمثل هذا يفكر من رزقه الله رجاحة العقل، ولمثل هذا فليتنافس المتنافسون، وهذا من أسباب توفيق الله لأبي بكر، حيث إنه لم يتردد عندما عرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام، وبادر إلى تصديقه فاستحق لقب الصديق، ثم انطلق بعد ذلك يدعو إلى الإسلام:

قال ابن إسحاق:

(فلما أسلم أبو بكر وأظهر إسلامه دعا إلى الله عز وجل وإلى رسوله، وكان أبو بكر رجلاً مؤلفاً لقومه، محبباً سهلاً، وكان أنسب قريش لقريش، وأعلم قريش بها، وبما كان فيها من خير وشر، وكان رجلاً تاجراً ذا خلق ومعروف، وكان رجال قومه يأتونه، ويألفونه لغير واحد من الأمر، لعلمه وتجارته وحسن مجالسته، فجعل يدعو إلى الله، وإلى الإسلام من وثق به من قومه، ممن يغشاه ويجلس إليه)^(٢).

(١) البداية والنهاية: (٢٧/٣).

(٢) الروض الأنف: (١١/٣)، للسهيلى.

ولأنه ﷺ كان أنسب قريش لقريش، وأعلم قريش بها، وبما كان فيها من خير وشر، فقد اختار نوعيات معينة من الرجال، وتجنب نوعيات أخرى. فلم تنقل لنا كتب السيرة أنه دعا: أبا لهب، وأبا جهل، وأمّية بن خلف، ومن هم على شاكلة هؤلاء لأنه كان يعلم ما هم عليه من فساد وطغيان وعنجهية جاهلية، ومن كانت هذه حالهم فليس متوقفاً منهم أن يستجيبوا لهذه الدعوة التي تتعارض مع عاداتهم وتقاليدهم أشد المعارضة، وليس من وراء دعوتهم في هذه المرحلة إلا الخصومة واللجاج.

أما الذين اختارهم الصديق، فقد كانوا عند حسن ظنه بهم فأسلموا معه، وهم: عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد ابن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله.

محمد بن عبد الله ﷺ وزوجه خديجة، ومولاه زيد، وعلي، وأبو بكر، وهؤلاء الذين أسلموا بدعوة أبي بكر رضي الله عنهم وأرضاهم هم أعضاء هذه الجماعة الإسلامية.. ولقد كانوا أسلم أهل الوادي فطرة، وأنقاهم سريرة، وأصدقهم لهجة، وأطيبهم عشرة.. وعلى سواعد هؤلاء الرجال نهضت دعوة الرعيل الأول.

حاصر سفهاء الأمصار منزل عثمان بن عفان ﷺ، واتهموه باتهامات باطلة ملفقة، فقال يرد على أحد رؤوس هذه الفتنة: (كذب والله ابن عديس، ولولا ما ذكر ما ذكرت، إني رابع أربعة في الإسلام، ولقد أنكحني رسول الله ﷺ ابنته، ثم توفيت فأنكحني ابنته الأخرى، ولا زني ولا سرقت في جاهلية ولا إسلام، ولا تعنيت ولا

تمنيت منذ أسلمت، ولا مسست فرجي يميني منذ بايعت رسول الله ﷺ . الخ^(١).

والشاهد هنا قوله: ولا زنيت ولا سرقت في جاهلية ولا إسلام، وهذه هي أخلاق السابقين الأولين رضي الله عنهم. يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه:

(إن الله نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه فابتعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه، يقاتلون على دينه، فما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن، وما رأوه سيئاً فهو عند الله سيء)^(٢).

(١) رواه أحمد، وهو حديث حسن.

(٢) البداية والنهاية: (١٨١ / ٧).

من أخلاق النبي ﷺ بعد البعثة

وصف الله تبارك وتعالى أخلاق المصطفى ﷺ بقوله: ﴿وَلَنْكَ لَعَلَّ خُلِقَ

عَظِيمٍ ﴿٤﴾ [القلم].

خلق عظيم لم يبلغ مستواه أحد من العالمين، ومن آثار هذا الخلق العظيم أنه يسمع هذا الثناء من الله جل وعلا فيزداد تواضعاً وسماحةً وليناً ولطفاً مع الناس، وهذا مما ليس في مقدور البشر، وإذا كانت بعض صفات هذا الخلق العظيم قد تمثلت برسول الله ﷺ قبل البعثة، وميزته عن سائر أقرانه، وعن أشرف مكة وأهل الفضل فيهم، فقد جاءت النبوة لتحدد سمات هذه الأخلاق، وهذا الذي قصدته عائشة رضي الله عنها في قولها: «كان خلق رسول الله ﷺ القرآن»^(١). أي كما هو القرآن فيما نص عليه من أمانة وصدق وعدل ورحمة وحفظ للعهد، ومطابقة القول للفعل، وفيما نهى عنه من ظلم وغش وأكل لأموال الناس بالباطل وغير ذلك من المحرمات.

ومن آثار هذا الخلق العظيم أيضاً أنه ﷺ كان يختار لأمته أيسر الأمور، ويحذّرهم من الغلو والتنطع في الدين، وكان يكثر من مشورة أصحابه تودداً إليهم، ورغبة منه لإشاعة سنة المشاورة بينهم، يقول تعالى: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ

(١) أخرجه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، الحديث رقم: (١٣٩).

لَئِن لَّهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٦﴾ [آل عمران].

ويقول: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَجِيمٌ﴾ ﴿١٦٨﴾ [التوبة].

- ﴿مَنْ أَنْفَسِكُمْ﴾ فهو كما قال جعفر بن أبي طالب للنجاشي: فكنا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه.. الخ.

- ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ شديد عليه عنتكم ومشتقكم لأنه بعض منكم ويخاف عليكم سوء العاقبة، والوقوع في العذاب^(١).

وإذا كنا فيما مضى قد عرضنا صوراً من أخلاق رسول الله ﷺ قبل البعثة شهد له بها المؤمنون والكافرون من أهل مكة، فليسوف نعرض فيما يلي صوراً أخرى من أخلاق رسول الله ﷺ بعد البعثة شهد له بها أقرب الناس إليه:

- عن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين قط، إلا أخذ أيسرهما، ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً، كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه في شيء قط إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم».

أخرجه البخاري ومسلم والموطأ وأبو داود.

(١) انظر تفسير القاسمي لهذه الآية، ص: (٣٣٠٥).

- وعنها رضي الله عنها قالت: «ما ضرب رسول الله ﷺ شيئاً قط بيده، ولا امرأة، ولا خادماً، إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما نيل منه شيء قط فينتقم من صاحبه، إلا أن ينتهك شيء من محارم الله فينتقم». أخرجه مسلم.

- وعنها أيضاً قالت: «جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال: إنكم تقبلون الصبيان، ولا نقبلهم؟ فقال رسول الله ﷺ: أو أملك لك أن نزع الله الرحمة من قلبك؟». أخرجه البخاري ومسلم.

- وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «خدمت رسول الله ﷺ عشر، فما قال لي أفٍ قط، وما قال لشيء صنعته: لم صنعته، ولا لشيء تركته: لم تركته، وكان رسول الله ﷺ من أحسن الناس خلقاً، ولا مسست خزاً ولا حريراً ولا شيئاً كان ألين من كف رسول الله ﷺ، ولا شممت مسكاً قط ولا عطراً كان أطيب من عرق النبي ﷺ». أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي.

وقال ابن حجر العسقلاني في تعليق له على هذا الحديث: (ويستفاد من هذا ترك العتاب على ما فات، لأن هناك مندوحة عنه باستئناف الأمر به إذا احتيج إليه، وفائدة تنزيه اللسان عن الزجر والذم واستئلاف خاطر الخادم بترك معاتبته، وكل ذلك في الأمور التي تتعلق بحظ الإنسان، وأما الأمور اللازمة شرعاً فلا يتسامح فيها لأنها من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)^(١).

(١) فتح الباري: (١٠/٥٦٥)، دار الكتب العلمية، بيروت.

- وعن أنس رضي الله عنه قال: «كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه برد نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي فجذبه بردائه جذبة شديدة، فنظرت إلى صفحة عاتق النبي ﷺ وقد أثرت بها حاشية البرد من شدة جذبته، ثم قال: يا محمد مر لي من مال الله الذي عندك. فالتفت إليه فضحك ثم أمر له بعتاء». متفق عليه.

أجل: ما كان رسول الله ﷺ يثار لنفسه ممن يظلمه، وإنما كان يعفو ويصفح: ولقد عفا عن هذا الأعرابي الذي جذبه بردائه جذبة شديدة، وعفا عن من قال له: هذه القسمة ما أريد بها وجه الله، وعفا عن من جاءه يطلب ديناً له، فقال له: إنكم يا بني عبد المطلب قوم مُطلُّ.

وعفا عن شيخ المنافقين الذي بالغ في إيذاء رسول الله ﷺ، قبل اعتذاره، وقال لابنه عندما جاءه يستأذنه بقتله: بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا.

لكنه ﷺ ما كان يعفو ولا يتساهل إذا انتهكت حرمت الله، لأن العفو في حق من حقوق الله ضعف ومهانة، ولقد غضب ﷺ عندما كلمه أسامة بن زيد بشأن المرأة المخزومية التي سرقت لأنه لا يجوز الشفاعة في حد من حدود الله، وغضب من الإمام الذي كان يطيل الصلاة بالناس لأن من ورائه الكبير والصغير وذا الحاجة.

وكان ﷺ يوصي أصحابه بحسن الخلق، ويرغبهم فيه:

- عن أبي الدرداء رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «ما من شيء أثقل في ميزان العبد المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق، وإن الله يبغض الفاحش البذيء». رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح، والبذيء: هو الذي يتكلم بالفحش وردىء الكلام.

- وعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً، وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون، قالوا: يا رسول الله قد علمنا الثرثارين والمتشدقين فما المتفيهقون؟ قال: المتكبرون»^(١).

من أقوال العلماء في محاسن الأخلاق

للعلماء كلام جميل في بيان محاسن الأخلاق، والتحذير من مساوئها، وفيما يلي مقتطفات من هذه الأقوال:

١- قال يوسف بن أسباط:

(علامة حسن الخلق عشر خصال؛ قلة الخلاف، وحسن الإنصاف، وترك طلب العثرات، وتحسين ما يبدو من السيئات، والتماس المعذرة، واحتمال الأذى، والرجوع بالملامة على النفس، والتفرد بمعرفة عيوب نفسه دون عيوب غيره، وطلاقة الوجه للصغير والكبير، ولطف الكلام لمن دونه ولمن فوقه)^(٢).

٢- وقال أبو حامد الغزالي: وجمع بعضهم علامات حسن الخلق فقال:

(هو أن يكون كثير الحياء، قليل الأذى، كثير الصلاح، صدوق اللسان، قليل

(١) رياض الصالحين، باب حسن الخلق، وصحيح سنن الترمذي، الحديث رقم ١٦٤٢-

(٢١٠٤)، والثرثار هو كثير الكلام، والمتشدد: هو الذي يتناول على الناس بالكلام.

(٢) إحياء علوم الدين، لأبي حامد الغزالي: (٣/ ٧١)، المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة.

الكلام، كثير العمل، قليل الزلل قليل الفضول، براً وصولاً وقوراً صبوراً شكوراً
رضياً حليماً رقيقاً عفيفاً شقيقاً، لا لعاناً ولا سباباً ولا نماماً ولا مغتاباً ولا عجولاً
ولا حقوداً ولا بخيلاً ولا حسوداً، بشاشاً هشاشاً يحب في الله، ويغض في الله،
ويرضى في الله، ويغضب في الله. فهذا هو حسن الخلق).

٣- ويقول ابن القيم:

(للأخلاق حد متى تجاوزته صارت عدواناً، ومتى قصرت عنه كان نقصاً
ومهانة.

فللغضب حد، وهو الشجاعةُ المحمودةُ والأنفةُ من الرذائل والنقائص، وهذا
كماله. فإذا جاوز حده تعدى صاحبه وجار، وإن نقص عنه جبن ولم يأنف من الرذائل.
وضابط هذا كله العدل، وهو الأخذُ بالوسط الموضوع بين طرفي الإفراط
والتفريط، وعليه بناء مصالح الدنيا والآخرة، بل لا تقوم مصلحة البدن إلا به. فإنه
متى خرج بعض أخلاقه عن العدل وجاوزه أو نقص عنه ذهب من صحته وقوته
بحسب ذلك)^(١).

ويقول أيضاً:

(أصل الأخلاق المذمومة كلها: الكبر، والمهانة، والدناءة. وأصل الأخلاق

(١) الفوائد، ابن القيم، ص: (٢٠٤)، دار الكتاب العربي.

المحمودة كلها: الخشوع، وعلو الهمة. فالفخر، والبطر^(١)، والأشر، والعجب، والحسد والبغي، والخيلاء، والظلم، والقسوة، والتجبر، والإعراض وإباء قبول النصيحة، والاستئثار، وطلب العلوّ، وحب الجاه والرئاسة، وأن يُحمدَ بما لم يفعل، وأمثال ذلك، كلها ناشئة من الكبر.

وأما الكذب، والخسة، والخيانة، والرياء، والمكر، والخديعة، والطمع، والفرع، والجبن، والبخل، والعجز، والكسل، والذل لغير الله، واستبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير، ونحو ذلك؛ فإنها من المهانة والدناءة وصغر النفس.

وأما الأخلاق الفاضلة: كالصبر، والشجاعة، والعدل، والمروءة والعفة، والصيانة، والحلم، والعفو، والصفح، والاحتمال، والإيثار، وعزة النفس عن الدنئات، والتواضع، والقناعة، والصدق، والإخلاص، والمكافأة على الإحسان بمثله أو أفضل، والتغافل عن زلات الناس، وترك الاشتغال بما لا يعنيه، وسلامة القلب من تلك الأخلاق المذمومة، ونحو ذلك؛ فكلها ناشئة عن الخشوع وعلو الهمة.. فَمَنْ علّت همته، وخشعت نفسه، اتصف بكل خلق جميل. وَمَنْ دنت همته، وطغت نفسه، اتصف بكل خلق رذيل^(٢).

(١) بطر: طغى ولم يشكر النعمة، والأشْرُ والبطر بمعنى واحد.

(٢) الفوائد، مصدر سابق، ص: (٢١٠).

الفصل الرابع

مكانة الأخلاق في بيان جعفر

مكائنة الأخلاق في بيان جعفر

عن أم سلمة زوج النبي ﷺ ورضي الله عنها قالت:

(لما نزلنا بأرض الحبشة جاورنا بها خير جار [النجاشي] أمنا على ديننا، وعبدنا الله لا نؤذى ولا نسمع شيئاً نكرهه، فلما بلغ ذلك قريشاً اتتمروا أن يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين جلدتين، وأن يهدوا للنجاشي هدايا مما يستطرف من متاع مكة، وكان أعجب ما يأتيه منها الأدم^(١) فجمعوا له أدماً كثيراً، ولم يتركوا من بطارقتة بطريقاً إلا أهدوا له هدية، ثم بعثوا بذلك عبد الله^(٢) بن أبي ربيعة بن المغيرة المخزومي، وعمرو بن العاص بن وائل السهمي، وأمروهما أمرهم، وقالوا لهما:

ادفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلموا النجاشي فيهم، ثم قدموا إلى النجاشي هداياه، ثم اسأله أن يسلمهم إليكم قبل أن يكلمهم. قالت: فخرجا فقدمنا على النجاشي، ونحن عنده بخير دار عند خير جار. فلم يبق من بطارقتة بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلمنا النجاشي، ثم قالوا لكل بطريق منهم: إنه قد صبا إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينكم، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائهم ليردوهم إليهم، فأشيروا عليه أن يسلمهم

(١) الأدم: مفردا أديم، وهو الجلد المدبوغ.

(٢) في رواية الإمام أحمد: عمارة بن الوليد بن المغيرة.

إلينا ولا يكلمهم، فإن قومهم أعلى بهم عيناً، وأعلم بما عابوا عليهم، فقالوا لهم: نعم، ثم إنهما قربا هداياهما إلى النجاشي فقبلها منهما، ثم كلماه..).

رفض الملك العادل -النجاشي- طلب عمرو بن العاص، كما رفض تأييد البطارقة لهذا الطلب الظالم، وأصرّ على استدعاء المسلمين إلى مجلسه وسؤالهم عن حقيقة ما يقوله رسولا قريش عنهم وعن دينهم.

قالت أم سلمة: (ثم أرسل إلى أصحاب رسول ﷺ فدعاهم، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا، ثم قال بعضهم لبعض: ما تقولان للرجل إذا أجبتموه؟! قال: نقول والله ما علمنا وما جاء به نبينا كائن في ذلك ما هو كائن، فلما جاؤوه فسألهم فقال: ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا به في ديني ولا في دين أحد من هذه الملل؟).

قالت: فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب، فقال: أيها الملك، كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنعبده ونوحده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة، والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده، لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام.

قالت: فعدد عليه أمور الإسلام، قال: فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به، فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئاً وحرّمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان عن عبادة الله، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا، وظلمونا، وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك، ورجبنا في جوارك، ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك..^(١) اهـ.

من فقه الحديث:

١ - في هذا الكلام الفريد في بابه تحدث جعفر عن أخلاق وعادات أهل الجاهلية، وهي من غير شك مستقبحة أشد الاستقباح في جميع الملل والأديان، ثم أشار إلى أهم الخصال الحميدة التي امتاز بها نبي الله محمد بن عبد الله ﷺ قبل البعثة، ومنها صدقه وأمانته وعفافه، ثم انتقل إلى الحديث عن هذا الدين الجديد، وكان موقفاً أعظم التوفيق عندما لخصه في مسألتين: الأولى: التمسك بالأخلاق الفاضلة، والكف عن كل ما فيه إيذاء للناس، والثانية: عبادة الله وحده لا شريك

(١) حديث أم سلمة أخرجه ابن إسحاق مسنداً، وقال ابن كثير في السيرة: وهذا إسناد جيد قوي، وقال ابن تيمية بعد ذكره لقصة المهاجرين في حديث أم سلمة: (وقد ذكر قصتهم جماعة من العلماء والحفاظ، كأحمد ابن حنبل في المسند، وابن سعد في الطبقات، وأبي نعيم في الحلية وغيرهم، وذكرها أهل التفسير، والحديث، والفقه، وهي متواترة عند العلماء) الجواب الصحيح: (٧٩/١)، مطبعة المدني.

له، وما الصلاة^(١)، والصيام والزكاة إلا التطبيق العملي لدعوة التوحيد.

والمسألة الأولى متداخلة بالمسألة الثانية تداخلاً يصعب الفصل بينهما، وهذا ما يمتاز به هذا الدين الجديد عن غيره من المذاهب والأديان الأخرى.

عمرو بن العاص وصاحبه كانا يصغيان جيداً لما يقوله جعفر بن أبي طالب في هذا اللقاء الحاشد، والذي ستسفر عنه نتائج فاصلة، ولم يستطيعا تكذيب ما قاله جعفر عن أخلاق الجاهلية، ولا ما قاله عن أخلاق محمد ﷺ قبل البعثة، أو ما قاله عما جاء به هذا الدين الجديد من آداب وتعاليم، وسكوتها إقرار بصحة ما قاله جعفر، لاسيما وأن ما ذكره من صفات ذميمة للعرب في جاهليتهم يمس عمرواً في الصميم، ويضعه في موضع المنهزم، وليس من السهل أن يُقرّ داهية العرب بالهزيمة.

٢ - كان المسلمون في الحبشة - في سلوكهم وأخلاقهم - قدوة طيبة، فلم يؤثر عنهم أعمال مخلة بالآداب العامة، ومواقف تتناقض مع عقيدة التوحيد التي هاجروا من أجلها وتحملوا مختلف أنواع الأذى في سبيلها، ولو صدر عنهم شيء من هذا القبيل لشاع أمره لأنهم غرباء، ومن طبيعة أهل أي بلد التوجس من الغرباء، ورصد حركاتهم، وإشاعة أخبارهم مع تضخيمها إن كانت سيئة.

وتتزايد الحاجة إلى مراقبة المهاجرين إلى الحبشة، لأنهم جماعة يعيشون في وسط لا

(١) كان ذلك قبل أن تفرض الصلاة والزكاة والصيام في مفهومها الذي حددته الآيات القرآنية والأحاديث النبوية.

تربطهم به روابط قرى أو لغة أو دين أو لون.. ومع ذلك كله فقد كانت أفعالهم صورة طبق الأصل عن أقوالهم، فالبطارقة الذين كانوا قد انحازوا إلى صف عمرو بن العاص بسبب الهدايا التي قدمها لهم عجزوا عن تقديم أي دليل ضد المسلمين، والملك العادل الذي كان ملماً بأحوال الناس في مملكته ما كان يعرف عن جعفر وأصحابه أي سوء.

٣ - فوجيء المشركون بهجرة بعض المسلمين إلى الحبشة، لأن هذه الهجرة تقضي على الأمل الذي يراودهم في حصار الدعوة داخل مكة، والقضاء عليها وهي لا تزال في مهدها، ومن جهة أخرى فالحبشة موقع حساس بالنسبة لأهل مكة، وبين البلدين علاقات قوية، ووجود قاعدة آمنة للمسلمين في هذا البلد ستكون له عواقب بالغة الخطورة على الشرك وأهله، ويظهر لنا خوف قريش من خلال الهدايا الثمينة التي جمعوها، والوفد الذي اختاروه، والخطة التي أحكموا حبكها.

كان عمرو بن العاص رسول قريش إلى النجاشي، وكان يضرب به المثل في الدهاء والذكاء والمكر والمراوغة. قال الشعبي: دهاة العرب أربعة: معاوية، وعمرو، والمغيرة، وزباد. فأما معاوية فللأناة والحلم، وأما عمرو فللمعضلات، والمغيرة للمبادهة، وأما زياد فللصغير والكبير. وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا رأى رجلاً يتلجلج في كلامه، قال: خالقتُ هذا وخالقتُ عمرو بن العاص واحد^(١).

وإذن فإن عمرو بن العاص كان قد اعتمد في مهمته على واسع حيلته، وعظيم دهائه، وقدرته الفائقة على المراوغة، وخبرته الطويلة في هذا الميدان، كما كان قد

(١) سيرة أعلام النبلاء، للذهبي: (٣/٥٦)، مؤسسة الرسالة.

اعتمد على الرشاوى الثمينة التي قدمها للبطارقة وللنجاشي، ومن جهة أخرى فإن عمرو بن العاص ومن هم على شاكلته معروفون عند أهل الحبشة - قيادة وقاعدة - أما محمد ﷺ وجعفر بن أبي طالب وغيرهما من عموم المسلمين فمجهولون، ولا حاجة للأحباش بمجموعة تدعو نصرتها إلى تفجير مشكلة مع أهل بلد صديق.

ورغم اعتماد ابن العاص في مفاوضاته مع النجاشي على أوراق مهمة وفعّالة، فقد كان وقومه يطالبون برد المسلمين إلى قومهم قبل أن يكلمهم النجاشي، تقول أم سلمة: (ولم يكن شيء أبغض إلى عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص من أن يسمع كلامهم [أي كلام المسلمين] النجاشي)، وفي هذا دليل على أن الحق قوي وإن كان حملته مستضعفين مشردين، وأن الباطل ضعيف مهما رغا وأزبد.

لم يستسلم ابن العاص عندما رده النجاشي ورفض تسليم المسلمين إليه، تقول أم سلمة: (فلما خرجا من عنده، قال عمرو بن العاص: والله لآتينه غداً عنهم بما أستأصل به خضراءهم. قالت: قال له عبد الله بن أبي ربيعة، وكان أتقى الرجلين فينا: لا تفعل، فإن لهم أرحاماً، وإن كانوا قد خالفونا)، ثم غدا على النجاشي ليخبره بأنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد الله، وكان ابن العاص يجزم بأن ما فعله هو الضربة القاضية!!.

وإذا كان المسلمون يعتقدون بأن المسيح عليه السلام عبد الله ورسوله، فما هي عقيدة ابن العاص وقومه من كفار مكة بالمسيح وإخوان المسيح من الأنبياء والرسول ورب المسيح؟! ليس مهماً الجواب على هذا السؤال، وإنما الأهم استئصال خضراء

جعفر وأصحابه بأي ثمن: رشوى.. نميمة.. دس وافتراء.. مكر ومراوغة، وهذا هو أسلوب أهل الكفر نحو المسلمين في القديم والحديث، قال تعالى: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَاذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ [التوبة].

لقد كان ابن العاص في موقفه هذا قدوة يحتذي بها رجال السياسة الذين يطاردون الدعاة إلى الله في كل مكان، ويتحالفون مع اليهود والنصارى والوثنيين من أجل استئصال خضرائهم، وبترشأتهم، وتشويه سمعتهم، وإن السياسة عند أهل الكفر والنفاق تعني: الكذب والافتراء والانتهازية والدعوة إلى تقديس الذات، ولا يبالي أحدهم إذا لبس اليوم لبوس الشيوعية، وغداً لبوس الرأسمالية، ثم تنصل في اليوم الذي يليه من هذا وذاك.

أما المسلمون في الحبشة فقد كانت سياستهم منضبطة بضوابط الشرع من البداية وحتى النهاية، فلما دعاهم النجاشي اجتمعوا وتشاوروا ثم خرجوا من هذا الاجتماع بقرارين:

الأول: أن يقولوا للنجاشي ما علموا، وما أمرهم به نبيهم كائناً في ذلك ما هو كائن.

الثاني: أن يكون جعفر بن أبي طالب هو المتحدث باسمهم.

وإنه لموقف عصيب: فليس جعفر في شهرته ودهائه مثل ابن العاص، ومن جهة أخرى لم تنقل لنا الروايات أنهم طرحوا في اجتماعهم مسألة تقديم رشوة للنجاشي أو للبطارقة، ولعل مثل هذا الأمر لم يكن مطروحاً عندهم، لأن دعوة

الحق لا تنتشر ولا تملأ بمثل هذه الوسائل الهابطة، ومن جهة ثالثة فهم دعاة دين يكذب عقيدة التثليث التي ابتدعتها النصارى بعد عصر المسيح عليه السلام، ومع كل هذه الاعتبارات التي تخدم مهمة وفد قريش لا بد أن يقولوا للنجاشي ما علموا، وما أمرهم به نبيهم.

وخلال دقائق قليلة منذ بداية الاجتماع برزت عبقرية جعفر بن أبي طالب من خلال الدفاع الرائع الذي ألقاه أمام النجاشي والبطارقة ورسولي قريش، فمن حيث المادة لم يأت بجديد، ولم يقل إلا ما علمه عن هذا الدين، ولكن البراعة كانت في حسن الاختيار، وفي القدرة الفائقة على مخاطبة الفطرة البشرية في نفوس المستمعين.

وعندما ضرب ابن العاص ضربته الأخيرة في اليوم الثاني.. اجتمع المسلمون مرة أخرى وتشاوروا: ماذا يقولون عن عيسى عليه السلام إذا سأهم النجاشي عنه؟!، ثم خرجوا من هذا الاجتماع بقرار موحد: لا نقول إلا ما قال الله، وما جاء به نبينا كائناً في ذلك ما هو كائن!!.

ماذا كانت النتيجة النهائية؟!

هُزِمَ ابن العاص شر هزيمة، وهُزِمَ المكر والخداع والمراوغة أمام الحق الذي أحسن الصدع به رجال مستضعفون غرباء ليس لهم حول ولا قوة، وقال النجاشي لرسولي قريش في نهاية اللقاء الأول: انطلقا، فوالله لا أسلمهم إليكما أبداً ولا أكاد، وقال في نهاية اللقاء الثاني:

(ما عدا عيسى بن مريم ما قلت هذا العود، فتناخرت بطارقه حوله حين قال

ما قال، فقال: وإن نخرتم والله)، ثم قال للمسلمين: (اذهبوا فأنتم سيوم بأرضي، والسيوم: الأمنون، من سبكم غرم، ثم من سبكم غرم؛ فما أحب أن لي ديراً ذهباً وأني آذيت رجلاً منكم -والدير بلسان الحبشة الجبل- ردوا عليها هداياهما فلا حاجة لنا بها فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حين رد علي ملكي فأخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس في فأطيعهم فيه.

قالت [أم سلمة]: فخرجا من عنده مقبوحين مردوداً عليهما ما جاء به، وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار).

وإذن فإن جعفر وأصحابه كانوا يدركون بأن هذا اللقاء الذي دعاهم إليه ملك الحبشة له أبعاد خطيرة على حياتهم، وعلى مستقبل وجودهم في الحبشة، لكنهم قرروا أن يقولوا ما يأمرهم به دينهم، مهما كانت النتائج: اضطهاد.. قتل.. تسليمهم لابن العاص وصاحبه، فالوسيلة عندهم من جنس الغاية، وهم بعد ذلك وقبله يؤمنون بأن الأمور بيد الله سبحانه وتعالى، وما عليهم إلا الصدق في أقوالهم ومواقفهم.

والله جل وعلا الذي يعلم ما تكنه نفوسهم من إيمان عميق، وثبات على الحق لا يتزعزع قد هياً لهم أسباب النصر من حيث لم يحتسبوا ولم يخطر لهم على بال، فالنجاشي تأثر أشد التأثر بما سمع من جعفر عن معالم هذا الدين، وبكى حتى اخضلت عيناه بالدمع عندما سمع آيات من القرآن الكريم، وأعلن التصديق بنبوّة محمد ﷺ، ولم يكن من قبل -كما تشير الروايات- قد التقى بالمسلمين وسمع منهم.

وعمر بن العاص لم تتح له عداوته لرسول الله ﷺ التعرف على الإسلام، ولم

يحاول محاوره رسول الله ولا أصحابه في مكة، وها هو يستمع لكل ما قاله جعفر بن أبي طالب لا يقطعه ولا يحاول إسكاته لأن مجلس الملك المهيب لا يسمح بهذا النوع من الشعب، ولا بد لرجل نابغة مثل ابن العاص أن يتأثر مما سمعه من جعفر، وتشير بعض الروايات إلى أن هذا المجلس كان بداية رحلة ابن العاص إلى الإسلام، وأن النجاشي هو الذي حبب إليه الدخول في الإسلام لأنه كان صديقه كما كان كثير التردد عليه^(١).

إنه لمن المخجل أن نجد بعض المنسويين إلى الدعوة الإسلامية متأثرين بأساليب الأحزاب والهيئات السياسية التي لا تدين بالإسلام عقيدة وشريعة ونظام حياة.. وكثيراً ما نسمع هؤلاء يرددون: إن السياسة هي فن الممكن، والممكن - عندهم - لا بد وأن يخضع للمساومات، والمساوم يتشدد ابتداءً في عرضه ثم يقبل في النهاية نصف أو ربع ما كان يطلبه، وإذا قيل لهم: كيف قبلتم ورضيتم بما كنتم تصرون على رفضه؟!، أجابوا: لا بد في العمل السياسي من المرونة والواقعية، وتجنب الإغراق في الأوهام والأحلام، وعندما يناقشهم المحاور في مدلولات [المرونة] يسمع منهم أجوبة عائمة ومتناقضة يتعمدون تغليفها بأغلفة براقية تشف عما في داخلها من كذب ومراوغة.

والأشد إيلاماً أن بعض هذه الجماعات تتعمد اختيار نوعيات من هؤلاء المراوغين

(١) أخرج ابن إسحاق بسند متصل إلى عمرو بن العاص أن بداية إسلامه كانت بعد غزوة الخندق على يد النجاشي، سير أعلام النبلاء: (٥٩/٣).

ليكونوا ممثلين لها عند المؤسسات الحكومية الظالمة، أو عند الأحزاب الجاهلية العاتية، لأن هؤلاء الممثلين دهاة -على حد قولهم!!-، ثم يتركون لهم الحبل على غاربه، فيعقدون الاتفاقات، ويصدرون البيانات، ويحققون الانتصارات الموهومة المصطنعة التي تضاعف من قيمتهم عند جماعاتهم، وترسخ القناعة بأن استبدالهم بآخرين غير ممكن لأنه ليس في الجماعات من يتصف بالمؤهلات التي يمتاز بها هؤلاء الدهاة!!، وإذا أصرت إحدى هذه الجماعات على تغيير ممثلها السياسي، فقد تفشل لأن الجهة الرسمية لا تتعاون مع غير الأول، أو لأن هذا الممثل ينقلب على إخوانه ويحاول إيذاءهم مستخدماً كل ما عنده من مراوغة وكذب وخداع، وعندها تفهم الجماعة -ولكن في وقت متأخر- الخطأ الذي وقعت فيه.

إن الوسيلة في ديننا من جنس الغاية، والعمل السياسي يعني التزام ما أمر الله به ورسوله، وهو عبادة، مثله مثل سائل أنواع العبادات القولية والفعلية، والمرونة في العمل السياسي محمودة شريطة أن لا تتجاوز الإطار الشرعي، وحسن فهم الواقع، وقد تحقق هذا في قول رسول الله ﷺ لأصحابه: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد»، والرسول ﷺ يقول هذا من منطلق معرفته لأحوال الملوك والأمم في عصره، وقد تحقق ما قاله عن عدل النجاشي، ومن جهة أخرى فقد كانت أفعال الصحابة في الحبشة مطابقة لأقوالهم، كما كانت استقامتهم وأخلاقهم خير شاهد على صحة ما يدعون إليه.

في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ فصول كافية تحدد معالم السياسة الشرعية وتبين

الجائز من غير الجائز، وهذه النصوص نفهمها كما فهمها أئمة الإسلام، وكل من ينتدب لتمثيل الهيئات والجماعات الإسلامية يجب أن تتوفر فيه صفات معينة من أهمها: التقوى والصدق والعلم وحصافة الرأي أو الدهاء الذي لا يخالف النصوص الشرعية، وفضلاً عن هذا وذاك لا بد من حسن الإعداد، واستعراض كافة الاحتمالات قبل إصدار القرارات.

رضي الله عن جعفر بن أبي طالب وسائر مهاجري الحبشة الذين تعلمنا منهم مثل هذه الدروس القيمة، وإذا كانت روايات السيرة لم تسعفنا بالكثير من أخبارهم، فحسبهم حديث أبي موسى الأشعري الذي أخرجه البخاري في صحيحه، وموجزه أن أسماء بنت عميس غضبت من عمر بن الخطاب عندما قال لها سبقناكم بالهجرة، فنحن أحق برسول الله منكم، فأجابته: كلا والله، كنتم مع رسول الله ﷺ يطعم جائعكم ويعط جاهلكم، وكنا في دار -أو في أرض- البعداء البغضاء بالحبشة، وذلك في الله وفي رسوله، ثم ذكرت ما دار بينها وبين عمر لرسول الله ﷺ، فقال لها: ليس بأحق بي منكم، وله ولأصحابه هجرة واحدة، ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان^(١).. وحسب جعفر أيضاً قول النبي ﷺ: «أشبهت خلقي وخلقي»^(٢).

(١) صحيح البخاري، الأول في كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، والثاني في كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ.

(٢) المصدر السابق.

الفصل الخامس

تزكية النفوس

تزكية النفوس

ربى رسول الله ﷺ من آمن بدعوته من أهل مكة تربية فريدة في نوعيتها وشموليتها، وكان ﷺ قدوة حسنة لهم في كل ما يأمرهم به وينهاهم عنه، وفي القرآن الكريم أدلة كثيرة على أهمية هذه التربية، قال تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ (١٥١) [البقرة]. وقال جل من قائل: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (١٦٤) [آل عمران]. وقال تعالت أسماؤه وصفاته: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيَّةِنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٢) [الجمعة].

- ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾: يقرأ على هؤلاء الأميين آيات الله التي أنزلها إليه، وهذه التلاوة كانت سبباً في إسلام كثير من مشركي العرب، لأنهم كانوا يدركون منذ الوهلة الأولى التي يستمعون فيها لآيات من القرآن الكريم أنه ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة، وإنما هو شيء جديد لا عهد للعرب به من قبل، وهذا الذي يتلوه من أصدق العرب وأبعدهم عن السحر والشعوذة، ولا بد أن يكون نبياً مرسلًا.

ونعمة تلاوة القرآن الكريم استمرت بعد وفاة رسول الله ﷺ، وها نحن نشهد مظاهرها في كل بيت ومدرسة، ولدى كل مناسبة، وعند كل صلاة، وقد أقيمت لتحفيظ القرآن ولتعليم تجويده وترتيبه وقراءته مدارس لا تعد ولا تحصى، وستبقى هذه السلسلة المباركة الطيبة إلى يوم القيامة إن شاء الله تعالى ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر].

- ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾: أي يطهر نفوس المسلمين من الأخلاق السافلة والردائل الممقوتة، ويخلقها بالأخلاق الحميدة، وقد جاء الإسلام بالتهذيب المطهر من الحسد والبغضاء وحب الدنيا وحب الجاه والإخلاق إلى الأرض، وكرهية الموت والحرص والجشع، وتحليتها بحب الله، والإقبال على الآخرة والرغبة في الجنة، وإيثار الآخرة على العاجلة، والطمع في رضا الله وثوابه.

يقول الأستاذ سيد قطب في تعليق له على هذه الآية: (.. وإنها لتزكية وإنه لتطهير ذلك الذي كان يأخذهم به الرسول ﷺ تطهير للضمير والشعور، وتطهير للعمل والسلوك، وتطهير للحياة الروحية، وتطهير للحياة الاجتماعية، تطهير ترتفع به النفوس من عقائد الشرك إلى عقيدة التوحيد، ومن التصورات الباطلة إلى الاعتقاد الصحيح، ومن الأساطير الغامضة إلى اليقين الواضح. وترتفع به من رجس الفوضى الأخلاقية إلى نظافة الخلق الإيماني، ومن دنس الربا والسحت إلى طهارة الكسب الحلال.. إنها تزكية شاملة للفرد والجماعة ولحياة السريرة وحياة الواقع. تزكية ترتفع بالإنسان وتصوراتها عن الحياة كلها وعن نفسه ونشأته إلى

آفاق النور التي يتصل فيها بربه، ويتعامل مع الملائ الأعلی، ومحسب في شعوره وعمله حساب ذلك الملائ العلوي الكريم)^(١).

- ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾: ويعلمهم كتاب الله، وما فيه من أمر الله ونهيه. أما الحكمة فللمفسرين أقوال فيها: فمنهم من قال هي السنة لأنها علمتهم كيف يهتدون بالقرآن، ومنهم من قال: هي أسرار الأمور وفقه الأحكام، وبيان المصلحة فيها، والطريق إلى العمل بها ذلك الفقه.. ذلك الفقه الذي يبعث على العمل، ومنهم من قال: المراد من الحكمة الأخلاق الفاضلة، والآداب الإسلامية، لأن القرآن قد أطلق لفظ [الحكمة] على هذه الأخلاق والآداب في مواضع شتى، ولينظر من يشاء إلى الآيات التي سبقت قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾ [الإسراء: ٣٩]، والآيات التي تلت قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ﴾ [لقمان: ١٢]^(٢)، والصواب أن الحكمة تشمل هذه المعاني الثلاثة التي ذكرها المفسرون.

وخلاصة القول: فإن الله جل وعلا قد بعث نبيه محمداً ﷺ لتلاوة القرآن الكريم، وتزكية نفوس المسلمين، وتعليمهم الكتاب والحكمة، وأن التزكية بمعناها العام الذي فصلنا القول فيه فيما مضى قد سبقت في الترتيب والأهمية التعليم، ولهذا

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، ص: (٣٥٦٥).

(٢) عدت إلى تفسير المنار، لرشيد رضا، وإلى كتاب الطريق إلى السعادة والقيادة، لأبي الحسن الندوي، ونقلت فقرات عنهما مما استحسنته في تفسير هذه الآية.

فقد ارتبطت بسائر الأعمال والأقوال.

فعن الصلاة يقول تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ۖ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ۝﴾ [١٥] ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ۖ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ۗ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وعن الزكاة قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

وعن الصيام قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٣].

وقول رسول الله ﷺ: «من لم يدع قول الزور، والعمل به؛ فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه»^(١).

وعن الحج قوله تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ۗ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ حَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ ۗ وَتَكْرُؤُ دُوَاءِ يَتِ حَيْرِ الزَّادِ النُّقُوءِ ۗ وَاتَّقُونَ يَتَأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ﴾ [البقرة: ١٩٧].

وعن أهل بيت رسول الله ﷺ يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣].

(١) البخاري.

لقد انتصر أصحاب رسول الله ﷺ على شهوات أنفسهم فحفظوا ألسنتهم عن الفحش والصخب، وحفظوا أعمالهم عن كبائر الذنوب والمعاصي، وطهروا قلوبهم من الرياء والتميمة والنفاق.. وعندما تحقق لهم هذا الانتصار العظيم كتب الله لهم النصر على عدوهم في معارك ضارية كان المشركون فيها متفوقين من حيث العدد والعدة، ولا إخال أحداً من المسلمين لا يعرف شيئاً عن معارك المسلمين المظفرة في: بدر، ومكة - عام الفتح -، والأحزاب، والقادسية، واليرموك، وحتين، وعين جالوت، وشقحب، وفتح القسطنطينية.

وهكذا كان شأن التابعين ومن تبعهم من أعلام وقادة هذا الدين، ولنأخذ مثلاً على ذلك التجار المسلمون الذين انتشروا في أقاصي بلاد العالم بحثاً عن المال والكسب الحلال، ولكن تجارتهم لم تشغلهم عن دعوتهم التي كان لها المقام الأول في حياتهم.

وكان الوثنيون يراقبون هؤلاء الوافدين الجدد، فيجدون تطابقاً تاماً بين أقوالهم وأفعالهم، فعندما يدعونهم إلى الصدق والاستقامة والوفاء بالوعد وأداء الأمانة كانوا يطبقون ما يقولون على أنفسهم، ولهذا فقد كان أهالي هذه البلدان يختارونهم دون غيرهم من التجار الوثنيين أو النصارى، ثم يتعرفون منهم على هذا الدين الذي صاغهم هذه الصياغة، ولا نعدو الحقيقة إذا قلنا إن أثر هؤلاء التجار في انتشار الإسلام لا يقل عن أثر الجيوش في الفتوحات الإسلامية.

ومما ينبغي التأكيد عليه أنه ما من مصلح أو مجدد كتب الله له التوفيق والسداد، إلا وكان يبدأ بنفسه فيصلحها، ثم يصلح أهله وأقرب الناس إليه، وهذا الذي

فعله عمر بن عبد العزيز - رحمه الله -، لقد جمع رؤوس الناس فخطبهم فقال: (إن فذك كانت بيد رسول الله ﷺ يضعها حيث أراه الله.. ثم إن مروان أقطعها فحصل لي منها نصيب، ووهبني الوليد وسليمان نصيبهما، ولم يكن من مالي شيء أردته أعلى منها، وقد رددتها في بيت المال على ما كانت عليه في زمان رسول الله ﷺ.. ثم أمر بأموال جماعة من بني أمية فردها إلى بيت المال وسماها أموال المظالم)^(١).

وقال في أول خطبة خطبها بعد أن تولى الخلافة: (.. أيها الناس من صحبنا فليصحبنا بخمس وإلا فليفارقنا، يرفع إلينا حاجة من لا يستطيع رفعها، ويعيننا على الخير بجهد، ويدلنا من الخير على مالا نهتدي إليه، ولا يغتابن عندنا أحداً، ولا يعرضن فيما لا يعنيه.. فانقشع عنه الشعراء والخطباء، وثبت معه الفقهاء والزهاد وقالوا: ما يسعنا أن نفارق هذا الرجل حتى يخالف فعله قوله)^(٢).

إن حالنا اليوم تختلف عما كانت عليه بالأمس، فانتصاراتنا تحولت إلى هزائم منكرة، وقوتنا إلى ضعف، ووحدتنا إلى فرقة وتناحر، وعزتنا إلى ذل وهوان، وما ذلك إلا لأننا حدنا عن النهج القويم والصرط المستقيم الذي خطه لنا المصطفى ﷺ.

قليل منا الذين يستفيدون من المواعظ.. وقليل من الوعاظ هم الذين تجد أقوالهم سبيلاً إلى قلوب المستمعين لأن الناس يعلمون أن أفعال هذا الواعظ تخالف أقواله. قال مالك بن دينار: (إن العالم إذا لم يعمل بعلمه زلت موعظته عن القلوب

(١) البداية والنهاية، ابن كثير: (١٩٨/٩ و ٢٠٠).

(٢) المصدر السابق.

كما يزل القطر عن الصفا)، وقول مالك - رحمه الله - مؤيد بقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا
 الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا
 تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾ [الصف]، وقوله تعالى في توبيخ بني إسرائيل الذين كانوا يأمرون
 الناس بالبر، وهم فيما يفعلون يخالفون ما يأمرون به الناس: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ
 بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤].

يا واعظ الناس قد أصبحت متهماً إذ عبت منهم أموراً أنت تأتيها
 أصبحت تنصحهم بالوعظ مجتهداً فالموبقات لعمري أنت جانيها
 تعيب دنيا وناساً راغبين لها وأنت أكثر منهم رغبة فيها
 ويقول آخر:

لاتنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم
 كان أحد الدعاة الذين رزقهم الله سبحانه وتعالى العلم والحكمة يحاضر في
 منتدى من المنتديات الأوربية عن مزايا الإسلام الرفيعة، وقيمه الراقية، وبعد انتهاء
 المحاضرة تقدمت امرأة من المنصة وقالت في تعليق لها:

لاشك أن عالمنا اليوم يفتقد هذه المزايا الرفيعة والقيم الراقية التي أشار إليها
 المحاضر، ولاشك أن المجتمعات التي تتمسك بهذا الدين لن يخيفها جحيم
 الجنس والجريمة والمخدرات التي غزت مجتمعاتنا، وأفسدت القيم والأخلاق في
 نفوس الناس، ومن المؤسف أن المؤسسات الكنسية رغم ما تملكه من إمكانات

هائلة وقفت عاجزة عن صد هذا الخطر الداهم الذي يستفحل شره يوماً بعد آخر، ولكن ليسمح لي المحاضر الكريم بمصارحته بالحقيقة المرة:

إن أخلاق المسلمين وعاداتهم تخالف هذا الذي سمعناه منك في هذه المحاضرة التي شدت انتباهنا. ووجدنا فيها حلاً لأزمتنا الأخلاقية المزمته، وحتى لا تظن أنني أتجنى عليكم وأرمي الكلام على عواهنه، فإنني أعرفك على وظيفتي ثم أسرد لك دليلاً بيناً على صحة ما أقول:

أنا موظفة في مؤسسة الضمان الاجتماعي، وأنت تعلم جيداً أن هذه الوظيفة لا سيما وأنا أتولى مسؤولية مهمة فيها تمكنني من معرفة مختلف طبقات المجتمع في بلدنا، ودعني بعد أن عرفت وظيفتي من ذكر الدليل:

جاءتني ذات يوم امرأة مسلمة تطلب سكناً خاصاً بها وبأبنائها لأن زوجها الذي كانت تعيش معه في منزل واحد قد طلقها، وقمت باتخاذ الإجراءات اللازمة التي تمكنها من الحصول على بيت ومكافأة، بعد أن قدمت لي الوثائق التي تثبت صحة قولها، ثم عادت المرأة نفسها بعد حين لتخبرني بأنها رزقت مولوداً، وجاءت تطلب مكافأة له.

كيف حدث هذا وقد مضى على طلاقها أكثر من عامين، ومن جهة أخرى فإن الإسلام يحرم ما يعرف في بلادنا [بالصديق]؟!، لا بد لي أمام هذه الإثارة من القيام بالتحريات اللازمة.. وتبين لي أخيراً أنه لم يقع طلاق بين الزوجين ابتداءً، وأن الزوجة لم تغادر بيت زوجها، والقصة من أولها لآخرها تحايل على قانون الضمان الاجتماعي من

أجل الاستفادة من المكافأة المخصصة للمطلقة، أما البيت الثاني فقد قاما بتأجيله، والأسوأ من هذا وذاك أن الوالدين لم يترددا في تسجيل المولود كابن غير شرعي.

ومضت المرأة في مداخلتها فقالت:

أيها السيد المحاضر: ليست هذه حالة فريدة فنضرب الصفح عنها، ولو استعرضت معي سجلاتنا لتبين لك أنه لا فرق بين المسلمين وبين غيرهم في الكذب والغش والاحتيال، وأخشى أن أصدمك لو قلت لك أكثر من هذا، فأين هذه الخصال والمزايا الراقية التي تحدثت عنها؟!.

قد تقول لي: هناك فئة من المسلمين تتمثل فيهم مزايا الإسلام الطيبة، ولا يعرف الكذب والغش سبيلاً إلى نفوسهم الأبية، فأجيب: وهناك أيضاً من غير المسلمين من تتمثل فيهم صفات طيبة كالصدق والأمانة وحب الخير، فلست وإياك نتحدث عن هذه الفئات القليلة النادرة لأن الشاذ لا حكم له، ولعلك لا تختلف معي عندما أقول: إن أحوال الناس في بلدانكم لا تختلف عن أحوال المسلمين الذين يعيشون بين ظهرانينا، وهذا ما تؤكد وسائل الإعلام وتقارير المنظمات الدولية -على اختلاف تخصصاتها-، وأقوال الأوربيين الذين زاروا هذه البلدان.. فقل لي أيها السيد المحاضر لماذا هذا التناقض المريع بين أحوالكم التي أشرنا إليها وبين ما يدعو إليه دينكم؟!.

عرضت مسؤولية الضمان الاجتماعي في مداخلتها على محاضرة أخصنا الداعية مشكلة المسلمين في هذا العصر، وهي -والحق يقال- لا تتجنى علينا، وقد قلت

غير مرة: إن الأوربيين الذي دخلوا الإسلام قالوا بعد احتكاكهم بالمسلمين: من فضل الله علينا أننا أسلمنا قبل أن نرى هذه السلبيات المؤسفة.

إن الدعاة المصلحين مطلوب منهم أن يكونوا في أخلاقهم وسلوكهم وأفعالهم صورة صادقة لهذا الدين الذي يدعون الناس إليه، وأن يجذروا أشد الحذر من تناقض القول مع العمل، يقول الحق جل وعلا: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ ، وهذه سنة ثابتة من سنن الله في التغيير، وخطوة أولى في مسيرة الإصلاح، فمن تجاوزها إلى غيرها فشل.

فمن الدعاة من يرى أن الجهل بالعلوم الشرعية هو سبب هذه المشكلة التي يضج الناس في الشكوى منها، وأنه لا سبيل إلى التغيير والإصلاح إلا بتبديد دياجير الجهل، ولهذا فهم يشمرون عن سواعد الجد والعمل، ويأخذون على عواتقهم نشر التعليم بكافة الإمكانيات المتاحة لهم.. لكنهم ينسون أو يتناسون بأن التعليم لا ينفصل عن التربية، وإذا وقع الانفصال فلسوف تشتد الأزمة وترسخ لأن هناك فرقاً شاسعاً بين الجاهل الذي لا يأبه الناس لقوله، وبين العالم الذي يزعم أنه يقدم أدلة من الكتاب والسنة وأقوال الأئمة يبرر من خلالها مواقف السيئة وأفعاله القبيحة والدين بريء مما ينسبه إليه.

رجال التعليم في بلادنا أدركوا منذ وقت مبكر أن التربية مرتبطة بالتعليم أشد الارتباط وأوثقه، ولهذا فقد سمو الوزارة المسؤولة عن التعليم [وزارة التربية والتعليم]. وقد أصابوا في الاسم المختار، كما أصابوا عندما قدموا التربية على

التعليم.. ولكن كثيراً من القادة الذين ابتليت بهم أمتنا فسروا التربية تفسيراً علمانياً خبيثاً، وعملوا على تربية أجيال تعكف على تعظيم أوثان حديثة كالتقدمية، والوطنية، وتقديس تراب الوطن، والوحدة، والدين لله والوطن للجميع، وغير ذلك من أصنام لا تعد ولا تحصى.

ومن الدعاة أيضاً من يرى أن سقوط الخلافة وما تبعه من تقسيم الأمة إلى دويلات، واستبدال القوانين الجاهلية بأحكام الشريعة الإسلامية.. هو سبب تخلف المسلمين وهوانهم، وأنه لا بد من قيام جماعات تعمل من أجل عودة الخلافة.

هذا وذاك وغيرهما مما لم نشر إليه مطلب شرعي لا غبار عليه، والعمل من أجله واجب في ذمة كل داعية، ولكن الخطوة الأولى في هذا الطريق تستهدف إصلاح النفوس، ومن يعجز عن تغيير نفسه وإصلاحها فلن يقدر على تغيير المجتمع.

لقد شهدنا قيام تجمعات كبيرة، تعلق الناس بها، واستبشروا بقيامها، وعلو شأنها، وضخامة عدد المنتسبين إليها، ولكنها عندما أخذت تقترب من تحقيق أهدافها دب الخلاف بين قادتها، وتعذر الإصلاح، وانقسمت على نفسها، وصدّم الأعضاء بما صاروا يسمعون عن أخلاق بعض قادتهم السيئة، وتبين بالأدلة التي لا يخالطها شك أن هؤلاء القادة بدأوا بالخطوة الثانية وأهملوا الخطوة الأولى ولهذا وصلت الجماعة إلى طريق مسدود.

وخلاصة القول: فإن التربية بالقدوة أفضل أنواع التربية وأجلها، ولم نسمع أو نر أن كذاباً ربى صادقاً، وجباناً ربى شجاعاً، وحقوداً حسوداً

ربى حليماً متسامحاً، وبخيلاً ربى كريماً، ورحم الله من قال: (أقيموا دولة الإسلام في نفوسكم تقم في أرضكم..).

وأختم قولي هذا بدعاء رسول الله ﷺ: «اللهم اهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت».

الفهرس

٥	المقدمة
الباب الأول: العدل والإنصاف	
١١	الفصل الأول: العدل في مدلوله الشرعي
١٣	- العدل
١٤	- شواهد من القرآن الكريم
١٨	- شواهد من السنة
١٩	- من فقه الحديث
٢١	- عدل الإسلام مع الكفار
٢٢	- شواهد من التاريخ على عدل الإسلام مع الكفار
٢٦	- عدل أئمة السلف
٢٩	- عدل الدعاة فيما بينهم
٣٣	الفصل الثاني: درس لا ينسى
٣٧	- مثال تطبيقي

٤٤ - إنها السنن

٤٧ الفصل الثالث: سؤال وجوابه

الباب الثاني: الإرهاب داخل الصف الإسلامي

٦٥ الفصل الأول: أمثلة تؤكد وجود هذا الإرهاب

٧٢ - المثال الأول من تجربة النظام الخاص

٧٤ - المثال الثاني من سورية

٧٥ - المثال الثالث من مصر

٧٦ - المثال الرابع من أفغانستان

٧٨ - المثال الخامس من الجزائر

٧٩ - حكم القتل عمداً

٨٣ الفصل الثاني: الإرهاب الفكري

٩٣ الفصل الثالث: الدوافع والأسباب

الباب الثالث: أزمة أخلاق

الفصل الأول: المستعمرون والمستغربون وضعوا أساس هذه

- ١٠٣ الأزمة
- ١٠٥ -إنها أزمة
- ١١٢ - المستعمرون وضعوا أساس هذه الأزمة
- ١٢٥ -المستغربون على خطى أساتذتهم
- ١٣٣ - علمانيون أكثر من العلمانية
- ١٣٣ ١ - حجاب المرأة
- ١٣٤ أ - تركيا
- ١٣٥ ب - تونس
- ١٤٠ ٢ - المساجد
- ١٤٣ ٣ - الديمقراطية
- ١٤٧ الفصل الثاني: آثار الأزمة
- ١٤٩ - أثرها على العامة

- ١٥٤ - أثرها على الخاصة
- ١٥٩ - أثرها في الحالات الاستثنائية
- ١٦٤ - والله غالب على أمره

الفصل الثالث: صور من أخلاق الرسول ﷺ قبل البعثة

- ١٦٧ **وبعدها**
- ١٦٩ - صور من حياة الرسول ﷺ وأصحابه قبل البعثة
- ١٦٩ - من فقه الحديث
- ١٧٧ - إسلام أبي بكر
- ١٨٠ - من أخلاق النبي ﷺ بعد البعثة
- ١٨٤ - من أقوال العلماء في محاسن الأخلاق
- ١٨٤ • يوسف بن أسباط
- ١٨٤ • أبو حامد الغزالي
- ١٨٥ • ابن القيم

١٨٧ الفصل الرابع: مكانة الأخلاق في بيان جعفر

٢٠١

الفصل الخامس: تزكية النفوس

٢١٥

الفهرس